

تفسير المعوذتين

من كتاب

بَدَائِعُ الْفَوَائِدِ

تأليف

الإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيس الجوزية

(٦٩١ - ٧٥١)

تحقيق

علي بن محمد العمران

إشراف

بكر بن عبد الله الجوزية

تمويل

مؤسسة سليمان بن عبد العزيز الراجحي الخيرية

دار عالم الفوائد

مَطْوِيَّاتٌ وَمِثْرَةٌ
أبو وائل مجاهد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم

قال الشيخ الإمام العالم العلامة الأوحى البارع، أوحى الفضلاء،
وقدوة العلماء، وارث الأنبياء، شيخ الإسلام، مفتي الأنام، المجتهد
المفسر ترجمان القرآن، ذو الفوائد الحسان، أبو عبدالله محمد بن
أبي بكر، المعروف بابن قيم الجوزية تغمده الله برحمته .

الحمد لله، ولا قوة إلا بالله ، هذه فوائد مختلفة الأنواع .

[تفسير المعوذتين]

روى مسلم في «صحيحه»^(١) من حديث قيس بن أبي حازم، عن عُمَبة بن عامر، قال: قال رسول الله ﷺ: «ألم ترَ آياتِ أنزلتِ الليلةَ لم يرَ مثلهنَّ قطُّ: «أعوذُ برَبِّ الفلقِ»، «أعوذُ برَبِّ الناسِ»» .

وفي لفظ آخر^(٢) من رواية محمد بن إبراهيم التيمي، عن عُمَبة^(٣) أن رسولَ الله ﷺ قال له: «ألا أُخبرُكَ بأفضلِ ما تَعَوَّذُ به المتعوذُونَ؟ قلت: بلى، قال: «قلْ أعوذُ برَبِّ الفلقِ»، و«قلْ أعوذُ برَبِّ الناسِ»» .

(ظ/١١٢٨) وفي الترمذي^(٤): حدثنا قُتَيْبة، نا ابن لهيعة، عن يزيد ابن أبي حبيب، عن علي بن رباح، عن عُمَبة بن عامر، قال: «أمرني رسولُ الله ﷺ أن أقرأ بالمعوذتين في دُبُرِ كلِّ صلاةٍ» قال: «هذا حديث غريب»^(٥).

وفي الترمذي والنسائي و«سنن أبي داود» عن عبدالله بن حبيب، قال: خَرَجْنَا فِي لَيْلَةٍ مَطَرٍ وَظُلْمَةٍ نَطْلُبُ النَّبِيَّ ﷺ لِيصَلِيَ لَنَا، فَأَدْرَكَنَاهُ، فَقَالَ: «قُلْ»، فَلَمْ أَقُلْ شَيْئًا، ثُمَّ قَالَ: «قُلْ»، فَلَمْ أَقُلْ شَيْئًا، ثُمَّ قَالَ:

(١) رقم (٨١٤).

(٢) أخرجه أحمد: (٤١٧/٣، ١٤٤/٤)، والنسائي: (٢٥١/٨) وفي سننه من لا يُعرف؛ لكنه يصحّ بشواهده الكثيرة، وانظر «السلسلة الصحيحة» رقم (١١٠٤).

(٣) كذا هنا ومثله في الموضوع الأول في «المسند»! والحديث معروف من رواية التيمي عن القاسم أبي عبدالرحمن أو أبي عبدالله عن عقبه.

(٤) رقم (٢٩٠٣)، وأخرجه - أيضًا - أبو داود رقم (١٥٢٢)، والنسائي: (٦٨/٣) من غير طريق ابن لهيعة.

(٥) وكذا في «تحفة الأشراف»: (٣١٢/٧)، وفي المطبوعة: «حديث حسن غريب».

«قل»، قلت: يا رسول الله ما أقول؟ قال: «﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾» (ق/١٦٩ب) والمُعَوِّذَتَيْنِ حِينَ تُمَسِّي وَحِينَ تُصْبِحُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ تَكْفِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ»^(١).

قال الترمذي: «حديث حسن صحيح»^(٢).

وفي الترمذي^(٣) أيضًا من حديث الجُرَيْرِي عن أَبِي نَضْرَةَ عن أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَعَوَّذُ مِنَ الْجَانِّ وَعَيْنَ الْإِنْسَانِ حَتَّى نَزَلَتِ الْمُعَوِّذَتَانِ، فَلَمَّا نَزَلْنَا أَخَذَ بِهِمَا وَتَرَكَ مَا سِوَاهُمَا»^(٤).

ثم قال: «وفي الباب عن أنس، وهذا حديث حسن غريب»^(٥).

وفي «الصحيحين»^(٦) عن عائشة رضي الله عنها: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ نَفَثَ فِي كَفِيهِ بِ: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» وَالْمُعَوِّذَتَيْنِ جَمِيعًا، ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ وَمَا بَلَغَتْ يَدَاهُ مِنْ جَسَدِهِ. قَالَتْ عَائِشَةُ: فَلَمَّا اشْتَكَى كَانَ يَأْمُرُنِي أَنْ أَفْعَلَ ذَلِكَ بِهِ».

قلت: هكذا رواه يونس، عن الزهري، عن عروة^(٧)، عن عائشة رضي الله عنها، ذكره البخاري.

ورواه مالك، عن الزهري، عن عروة عنها: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ

(١) أخرجه أبو داود رقم (٥٠٨٢)، والترمذي رقم (٣٥٧٥)، والنسائي: (٢٥٠/٨).

(٢) لفظه: «هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه» اهـ.

(٣) رقم (٢٠٥٨).

(٤) وأخرجه - أيضًا - النسائي: (٢٧١/٨)، وابن ماجه رقم (٣٥١١).

(٥) في (ظ ود) و«المنيرية»: «حديث غريب»، والمثبت من (ق) والترمذي و«تحفة الأشراف»: (٤٥٩/٣).

(٦) البخاري رقم (٥٧٤٨)، ومسلم: (١٧٢٣/٤) رقم (٥١).

(٧) «عن عروة» سقطت من (ق).

إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وَيَنْفُثُ، فلما اشتدَّ وجَعُه كنت أقرأ عليه وأمسح عليه بيده رجاء بركتها»^(١).

وكذلك قال مَعْمَرُ، عن الزهري، عن عروة، عنها: «أن النبي ﷺ كان يَنْفُثُ على نفسه في مرضه الذي قُبِضَ فيه بالمعوذات، فلما ثَقُلَ كنتُ أنا أَنْفُثُ عليه بهنَّ وأمسحُ بيده نفسه لبركتها» فسألتُ ابنَ شهاب كيف كان يَنْفُثُ؟ قال: ينفث على يديه ثم يمسح بهما وجهه. ذكره البخاري^(٢) أيضًا.

وهذا هو الصواب: أن عائشة كانت تفعل ذلك، والنبي ﷺ لم يأمرها ولم يمنعها من ذلك، وأما أن يكون استرقى وطلب منها أن ترقيه = فلا، ولعل بعض الرواة رواه بالمعنى، فظنَّ أنها لما فعلت ذلك وأقرها النبي ﷺ^(٣) أنه كان يأمرها، وفرَّق بين الأمرين، ولا يلزم من كون النبي ﷺ قد أقرها على رقيته أن يكون مسترقياً، فليس أحدهما بمعنى الآخر، ولعلَّ الذي كان يأمرها به إنما هو المسح على نفسه بيده، فيكون هو الرَّاقي لنفسه، ويُدُّه لما ضَعُفت عن التَّنْقُلِ على سائر بدنه أمرها أن تنقلها على بدنه، ويكون هذا غير^(٤) قراءتها هي عليه ومسحها على بدنه، فكانت تفعل هذا وهذا، والذي أمرها به إنما هو يَنْقُلُ يده لا رقيته، والله أعلم.

والمقصودُ الكلامُ على هاتين السورتين، وبيان عظيم منفعتهما، وشدَّة الحاجة بل الضرورة إليهما، وأنه لا يستغني عنهما أحدٌ قط،

(١) رواه البخاري رقم (٥٠١٦)، ومسلم: (١٧٢٣/٤).

(٢) رقم (٥٧٣٥ و٥٧٥١)، ومسلم: (١٧٢٣/٤).

(٣) من هنا إلى «وأقرها» الثانية ساقط من (ظ ود).

(٤) (ق): «عين» وهو خطأ.

وأن لهما تأثيرًا خاصًا في دفع السحر والعين وسائر الشرور، وأن حاجة العبد إلى الاستعاذة بهاتين (ق/١٧٠أ) السورتين أعظم من حاجته إلى النَّفس والطعام والشراب واللباس.

فنقول - والله المستعان - : قد اشتملت السورتان على ثلاثة أصول، وهي أصول الاستعاذة^(١) :

أحدها: نفس الاستعاذة.

والثاني: المستعاذ به.

والثالث: المستعاذ منه.

فبمعرفة ذلك تُعرف شدة الحاجة والضرورة إلى هاتين السورتين، فلنعقد لهما ثلاثة فصول؛ الفصل الأول: في الاستعاذة، والثاني: في المستعاذ به، والثالث: في المستعاذ منه.

(١) «وهي أصول الاستعاذة» ساقطة من (ق).

الفصل الأول

اعلم أن لفظ «عاذ» وما تصرف منها تدل على التحرُّز (ظ/١٢٨ب) والتحصُّن والالتجاء^(١)، وحقيقة معناها: الهروب من شيء تخافه إلى من يعصمك منه، ولهذا يسمَّى المستعاذ به: «مَعَاذًا»، كما يسمَّى «ملجأً ووزراً».

وفي الحديث: أن ابنة الجَوْن لما أُدْخِلت على النبي ﷺ فوضع يده عليها، قالت: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ، فقال لها: «لَقَدْ عُدَّتْ بِمَعَاذِ الْحَقِّي بِأَهْلِكَ»^(٢). فمعنى «أَعُوذُ»: ألتجىء وأعتصم وأتحرز، وفي أصله قولان؛ أحدهما: أنه مأخوذ من السَّتر. والثاني: أنه مأخوذ من لزوم المجاورة.

فأما من قال: إنه مأخوذ من الستر، قال: العرب تقول للنبت الذي في أصل الشجرة التي قد استتر بها: «عُوذٌ» بضم العين وتشديد الواو وفتحها، فكأنه لما عاذ بالشجرة واستتر بأصلها وظلها سموه «عُوذًا»، فكَذَلِكَ الْعَائِذُ قَدْ اسْتَتَرَ مِنْ عَدُوِّهِ بِمَنْ اسْتَعَاذَ بِهِ مِنْهُ، وَاسْتَجَنَّ بِهِ مِنْهُ.

ومن قال: هو من^(٣) لزوم المجاورة، قال: العرب تقول للحم إذا لَصِقَ بِالْعَظْمِ فَلَمْ يَتَخَلَّصْ مِنْهُ «عُوذًا»؛ لأنه اعتصم به واستمسك به، فكَذَلِكَ الْعَائِذُ قَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْمَعَاذِ^(٤)، واعتصم به ولزمه.

(١) (ظ): «والنجاة»، (د): «التخلص والنجاة».

(٢) أخرجه البخاري رقم (٥٢٥٥) من حديث أبي أسيد الساعدي - رضي الله عنه - .

(٣) من (ق).

(٤) كذا في الأصول: «المعاذ»، وفي «المنيرية»: «المستعاذ به».

والقولان حق، والاستعاذة تنتظمهما معاً، فإن المستعيز مستتر بمَعَاذِهِ متمسك به معتصم به، قد استمسك قلبه به ولزمه، كما يلزم الولد أباه إذا شَهِرَ عدوه^(١) سيفاً^(٢) وقصده به، فهربَ منه فعرضَ له أبوه في طريق هربه، فإنه يُلقِي نفسه عليه ويستمسك به أعظم استمساك، فكذلك العائذ قد هرب من عدوه الذي يبغى هلاكه إلى ربّه ومالِكه، وفرَّ إليه وألقى نفسه بين يديه واعتصم به واستجار به والتجأ إليه.

وبعد؛ فمعنى الاستعاذة القائم بقلبه وراء هذه العبارات، وإنما هي تمثيل وإشارة وتفهم، وإلا فما يقوم بالقلب حينئذٍ من الالتجاء والاعتصام والانطراح بين يدي الرب، والافتقار إليه والتذلل بين يديه، أمر لا تحيط به العبارة.

ونظير هذا التعبير عن معنى محبته وخشيته وإجلاله ومهابته، فإن العبارة تَقْصُرُ عن وصف ذلك، ولا تُدرك إلا بالاتصاف بذلك، لا بمجرد الصفة والخبر، كما أنك إذا وصفت لذة الوقاع لِعَيْنَيْنِ لم تُخْلَقْ له شهوةٌ أصلاً، فلو قَرَّبْتَهَا وشبَّهْتَهَا بما عساک أن تشبهها به لم تحصل حقيقة معرفتها في قلبه، فإذا وصفتها لمن خُلِقَتْ فيه ورُكِبَتْ فيه عرفها بالوجود والذوق.

وأصل هذا الفعل «أَعُوذُ» بتسكين العين وضم الواو، ثم أُعِلَّ بنقل حركة الواو إلى العين وتسكين الواو، فقالوا: «أَعُوذُ» على أصل هذا الباب، ثم طَرَدُوا إعلالَه فقالوا في اسم الفاعل: «عائذ»، وأصله: «عاوذ»، فوَقَعَت الواو بعد ألف فاعل فقلبوها همزة، كما

(١) (ظ ود): «عنده»، و«المنيرية»: «أشهر عليه عدوه».

(٢) من هنا إلى قوله ص/٧٠٧: «أنشأه» ساقط من (ق).

قالوا: «قائم وخائف»، وقالوا في المصدر «عيادًا بالله»، وأصله «عِوَادًا» كـ«لِوَاد»، فقلبوا الواو ياء للكسرة قبلها، ولم تحسنها حركتها؛ لأنها قد ضعفت بإعلالها في الفعل، وقالوا: «مستعِيد»، وأصله: «مستَعُوذ» كـ«مستَخْرِج»، فنقلوا كسرة الواو إلى العين قبلها، قلبت الواو قبلها كسرة فقلب ياء على أصل الباب^(١).

فإن قلت: فلم دخلت السين والتاء في الأمر من هذا الفعل كقوله: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ [النحل: ٩٨] ولم تدخل في الماضي والمضارع، بل الأكثر أن يقال: «أعوذ بالله»، و«عُذْتُ بالله»، دون «أستعِيد» و«استعدت»؟.

قلت: السين والتاء دالة على الطلب، فقوله: «أَسْتَعِيدُ بالله»، أي: أطلب العيادَ به، كما إذا قلت: «أَسْتَخِيرُ الله»، أي: أطلب خَيْرَتَهُ، و«أَسْتَغْفِرُهُ» أي: أطلب مغفرتَهُ، و«أَسْتَقِيلُهُ» أي: أطلب إقالتَهُ، فدخلت في الفعل إيذانًا لطلب هذا المعنى من المعاد، فإذا قال المأمور: «أعوذ بالله»، فقد امتثل ما طُلب منه؛ لأنه طُلب منه الالتجاء والاعتصام، وفرَّق بين نفس الالتجاء والاعتصام، وبين طلب ذلك. فلما كان المستعِيد (ظ/١٢٩) هارِبًا ملتجئًا معتصمًا بالله أتى بالفعل الدال على ذلك دون الفعل الدال على طلب ذلك، فتأمل.

وهذا بخلاف ما إذا قيل: «أَسْتَغْفِرُ الله»، فقال: «أَسْتَغْفِرُ الله»، فإنه طلب منه أن يطلب المغفرة من الله، فإذا قال: «أَسْتَغْفِرُ الله» كان ممثلاً؛ لأن المعنى أطلب من الله أن يغفر لي. وحيث أراد هذا المعنى في الاستعاذة فلا ضير أن يأتي بالسين، فيقول: «أَسْتَعِيدُ بالله»، أي: أطلب منه أن يعيذني، ولكن هذا معنى غير نفس الاعتصام

(١) كذا العبارة وفيها اضطراب، ولعلها: «ثم قلبت الواو ياءً للكسرة قبلها».

والالتجاء والهرب إليه . فالأول: مخبر عن حاله وعيادته بربه، وخبره يتضمن سؤاله وطلبه أن يعيده . والثاني: طالبٌ سائل من ربه أن يعيده، كأنه يقول: أطلب منك أن تعيدني، فحال الأول أكمل .

ولهذا جاء عن النبي ﷺ في امثال هذا الأمر: «أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم»، و«أعوذُ بكلماتِ الله التَّامَّاتِ»^(١) - و«أعوذُ بعِزَّةِ الله وقُدْرَتِهِ»^(٢) دون «أستعِذ»، بل الذي علّمه الله إياه أن يقول: ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَكِ﴾ ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ دون «أستعِذ»، فتأمل هذه الحكمة البديعة .

فإن قلت: فكيف جاء امثال هذا الأمر بلفظ الأمر والمأمور به، فقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَكِ﴾ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ومعلوم أنه إذا قيل: «قل الحمد لله»، و«قل سبحان الله»، فإن امثاله أن يقول: «الحمد لله، وسبحان الله، ولا يقول: «قل سبحان الله»؟

قلت: هذا هو السؤال الذي أورده أبي بن كعب على النبي ﷺ بعينه وأجابه عنه رسول الله ﷺ . قال البخاري في «صحيحه»^(٣): حدثنا قتيبة، ثنا سفيان، عن عاصم وعبدَةَ، عن زرِّ، قال: «سألت أبي بن كعب عن المعوذتين، فقال: سألت رسولَ الله ﷺ، فقال: «قِيلَ لي فقلتُ»، فنحن نقول كما قال رسول الله ﷺ» .

ثم قال^(٤): حدثنا عليُّ بن عبد الله، ثنا سفيان، ثنا عبدَةُ بن أبي لُبَابَةَ،

(١) أخرجه مسلم رقم (٢٧٠٨) من حديث خولة بنت حكيم السلمية - رضي الله عنها - .

(٢) أخرجه مسلم رقم (٢٢٠٢) من حديث عثمان بن أبي العاص - رضي الله عنه - .

بلفظ: «أعوذ بقدره الله»، وأخرجه أحمد: (٤٣٥/٢٩ رقم ١٧٩٠٧)، وأبو داود

رقم (٣٨٩١)، والترمذي رقم (٢٠٨٠) بلفظ المؤلف .

(٣) رقم (٤٩٧٦) .

(٤) أي: البخاري رقم (٤٩٧٧) .

عن زُرِّ بن حُبَيْش، وحدثنا عاصم عن زُرِّ، قال: «سألت أباي ابن كعب، قلت: أبا المنذر إن أخاك ابن مسعود يقول كذا وكذا، فقال: إني سألت رسول الله ﷺ، فقال: «قِيلَ لي، فقلتُ: قُل»^(١) فنحن نقول كما قال رسول الله».

قلت: مفعول القول محذوف، وتقديره: «قِيلَ لي: قل»، أو: قِيلَ لي هذا اللفظ، فقلت كما قيل لي.

وتحت هذا من السر أن النبي ﷺ ليس له في القرآن إلا بلاغُه، لا أنه هو أنشأه [من قبل نفسه، بل هو المبلِّغ له عن الله. وقد قال الله له: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾^(١) فكان مُقْتَضَى البلاغ التام أن يقول: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾^(٢) كما قال الله. وهذا هو المعنى الذي أشار إليه ﷺ^(٢) بقوله: «قِيلَ لي فقلت» أي: فلست مبتدئاً بل أنا مبلِّغ أقول كما يقال لي، وأبْلَغُ كلامَ ربي كما أنزله إليّ.

فصلوات الله وسلامه عليه، لقد بَلَّغَ الرسالة وأدى الأمانة، وقال كما قيل له، فكفانا وشفانا من المعتزلة والجهمية وإخوانهم ممن يقول: هذا القول العزيز^(٣) وهذا النظمُ كلامُه ابتداءً هو به! ففي هذا الحديث أبين الرد لهذا القول، وأنه ﷺ بَلَّغَ القولَ الذي أمر (ق/١٧٠ب) بتبليغِه على وجهه ولفظه، حتى إنه لما قيل له: «قل» قال هو: «قل»؛ لأنه مبلِّغ محض، وما على الرسول إلا البلاغ.

(١) كذا في (ق وظ)، وفي (د) والرواية التي شرح عليها الحافظ: «قِيلَ لي: قل، فقلت». وكلام المؤلف يقضي بأن النص ليس فيه «قل».

(٢) (ظ ود): «أشار النبي ﷺ بعينه...».

(٣) (ظ ود): «القرآن العربي».

الفصل الثاني

في المستعاذ به، وهو الله وحده، رب الفلق، ورب الناس، ملك الناس، إله الناس، الذي لا ينبغي الاستعاذة إلا به، ولا يستعاذ بأحد من خلقه، بل هو الذي يُعيدُ المُستعِيزين، ويعصمهم ويمنعهم من شرِّ ما استعاذوا من شرِّه.

وقد (ظ/١٢٩ب) أخبر الله تعالى في كتابه عمَّن استعاذَ بخلقِه، أن استعاذتُه زادته طغيانًا ورهقًا، فقال حكاية عن مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦]، جاء في التفسير^(١): أنه كان الرجلُ من العرب في الجاهلية إذا سافر فأمسى في أرض قفر، قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من شرِّ سفهاء قومه، فبييت في أمن وجوار منهم حتى يصبح، أي: فزاد الإنس الجنُّ باستعاذتهم بسادتهم رهقًا، أي: طغيانًا^(٢) وإثمًا وشرًّا، يقولون: سُدنا الإنس والجنَّ.

والرَّهَقُ في كلام العرب: الإثم وغشيانُ المحارم^(٣)، فزادهم بهذه الاستعاذة غشيانًا لما كان محظورًا من الكبر والتعظيم، فظنوا أنهم سادوا الإنس والجنَّ.

واحتج أهل السُّنَّة على المعتزلة في أن كلمات الله غيرُ مخلوقة

(١) جاء ذلك عن جماعة من السلف، انظر «تفسير الطبري»: (١٢/٢٦٣).

(٢) بعدها في (ق): «وغيًا وإثمًا...».

(٣) انظر «القاموس»: (ص/١١٤٨).

بأن النبي ﷺ استعاذ بها^(١) بقوله: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ»^(٢) وهو ﷺ لا يستعيذ بمخلوق أبداً^(٣).

ونظير ذلك قوله: «أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخِطِكَ، وَبِعَفْوِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ»^(٤)، فدل على أن رضاه وعفوه من صفاته وأنه غير مخلوق. وكذلك قوله: «أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ»^(٥)، وقوله: «أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ»^(٦)، وما استعاذ به النبي ﷺ غير مخلوق، فإنه لا يستعيذ إلا بالله أو بصفة من صفاته.

وجاءت الاستعاذة في هاتين السورتين باسم الرَّبِّ والملك والإله، وجاءت الربوبية فيها مضافة إلى الفلق وإلى الناس، ولا بدَّ من أن يكون ما وصف به نفسه - سبحانه - في هاتين السورتين يناسب^(٧) الاستعاذة المطلوبة، ويقتضي دفع الشرِّ المستعاذ منه أعظم مناسبة وأبينها، وقد قررنا في مواضع متعددة أن الله - سبحانه - يُدعى بأسمائه الحسنی، فيُسأل لكل مطلوب باسم يناسبه ويقتضيه^(٨).

وقد قال النبي ﷺ في هاتين السورتين: إنه «ما تَعَوَّذَ الْمُتَعَوِّذُونَ

(١) من (ق).

(٢) تقدم ص/٧٠٦.

(٣) ليست في (ق).

(٤) تقدم ١/٢٩٤.

(٥) تقدم ص/٧٠٦.

(٦) قطعة من دعاء النبي ﷺ عند عودته من الطائف أخرجه ابن إسحاق «سيرة ابن هشام»: (٤١٩/٢) عن محمد بن كعب القرظي مرسلًا، والضياء في «المختارة»: (١٨١/٩) وغيره، عن عبدالله بن جعفر الطيار مرسلًا - أيضًا -.

(٧) سقطت من (ظ و د).

(٨) انظر ماتقدم في هذا الكتاب: (١/٢٨١، ٢٨٩، وغيرها)، و«المدارج»: (١/٤٨٢).

بِمِثْلِهِمَا»^(١)، فلا بد أن يكون الاسم المستعاذ به مقتضياً للمطلوب، وهو دفعُ الشر المستعاذ منه أو رفعه، وإنما يتقرر هذا بالكلام في الفصل الثالث، وهو الشيء المستعاذ منه، فتبين المناسبة المذكورة فنقول:

الفصل الثالث

في أنواع الشرور (ق/١٧١) المستعاذ منها في هاتين السورتين

الشرُّ الذي يُصِيبُ العبدَ، لا يخلو من قسمين: إما ذنوبٌ منه يعاقبُ عليها، فيكونُ وقوعُ ذلك بفعله وقصده وسعيه، ويكونُ هذا الشرُّ هو الذنوبَ وموجباتها، وهو أعظمُ الشرِّينِ وأدومُهُما وأشدُّهما اتصالاً بصاحبه، وإما شرٌّ واقع به من غيره، وذلك الغير إما مكلفٌ أو غير مكلف، والمكلف إما نظيره وهو الإنسان، أو ليس نظيره وهو الجِنِّيُّ، وغيرُ المكلف مثل الهوامِّ وذوات الحُمَى^(٢) وغيرها.

فتضمَّنت هاتان السورتان الاستعاذة من هذه الشرور كلَّها، بأوجز لفظ وأجمعِهِ وأدلَّهِ على المراد وأعمَّه استعاذةً، بحيث لم يبقَ شرٌّ من الشرور إلا دخلَ تحتَ الشرِّ المستعاذ منه فيهما.

فإنَّ سورة الفلق تضمَّنت الاستعاذة من أمور أربعة: أحدها: شرُّ المخلوقات التي لها شرٌّ عموماً. الثاني: شرُّ الغاسق إذا وَقَب. الثالث: شرُّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ. الرابع: شرُّ الحاسد إذا حَسَدَ. فتكلَّم على هذه الشرور الأربعة، ومواقعها، واتصالها بالعبد، والتحرُّز منها قبل

(١) تقدم ص/٦٩٩.

(٢) الحُمَّة: سُمُّ كل شيء يلدغ أو يلسع، ويجمع على: حمات وحُمَى. «اللسان»: (٢٠١/١٤).

وقوعها، وبماذا تُدفع بعد وقوعها.

وقبل الكلام في ذلك لا بُدَّ من بيان الشَّرِّ ما هو وما حقيقته؟^(١)
فنقول:

الشَّرُّ يقالُ على شيئين: على الألم وعلى ما يُفْضي إليه، وليس له مسمًى سوى ذلك، فالشُّرورُ هي (ظ/١٣٠) الآلامُ وأسبابُها، فالمعاصي والكفرُ والشُّركُ وأنواع الظلم هي شرورٌ، وإن كان لصاحبها فيها نوعُ غرضٍ ولذَّةٍ لكنها شرورٌ، لأنها أسبابُ الآلامِ ومفضيةٌ إليها كإفشاء سائر الأسبابِ إلى مسبباتِها، فترتَّب الألمُ عليها كترتَّب الموتِ على تناولِ السُّمومِ القاتلة، وترتبه على الذبح والإحراق بالنار والخنق بالحبل، وغير ذلك من الأسباب التي نُصِبَتْ^(٢) مفضيةً إلى مسبباتها ولا بُدَّ، ما لم يمنع السببية مانعٌ، أو يعارضُ السببَ ما هو أقوى منه، وأشدُّ اقتضاءً لضده، كما يعارضُ سببَ المعاصي قُوَّةُ الإيمانِ وعظَمَةُ الحسناتِ الماحيةِ وكثرتُها، فيزيد في كمِّيَّتها وكيفيَّتها على أسباب العذاب فيدفعُ الأقوى الأضعفَ، وهذا شأنُ جميعِ الأسبابِ المتضادةِ كأسبابِ الصُّحَّةِ والمرضِ، وأسبابِ الضعفِ والقوةِ.

والمقصود أن هذه الأسباب التي فيها لذَّةٌ مَّا، هي شرٌّ، وإن نالت بها النفسُ مَسْرَّةً عاجلةً، وهي بمنزلة طعام لذيذ شهِيٍّ لكنه مسمومٌ، إذا تناولهُ الآكلُ لَدَّ له أكله^(٣) وطاب له مَسَاغُهُ، وبعد قليل يفعلُ به ما يفعل، (ق/١٧١ب) فهكذا المعاصي والذنوب ولا بُدَّ، حتى لو لم

(١) «وما حقيقته» ليست في (ق).

(٢) (ظ و د): «تصبيه».

(٣) (ظ و د): «لَدَّ أكله».

يخبر الشارحُ بذلك لكان الواقعُ والتجربةُ الخاصَّةُ والعامَّةُ من أكبر شهوده.

وهل زالت عن أحدٍ قطُّ نعمةٍ إلا بشؤمٍ معصيته، فإنَّ الله إذا أنعم على عبد بنعمة حفظها عليه، ولا يغيِّرُها عنه حتى يكونَ هو السَّاعي في تغييرها عن نفسه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

ومن تأمَّل ما قصَّ اللهُ - تعالى - في كتابه من أحوال الأمم الذين أزال نعمه عنهم، وجد سبب ذلك جميعه إنما هو مخالفة أمره وعصيان رسله، وكذلك من نظر في أحوال أهل عصره، وما أزال الله عنهم من نعمه، وجد ذلك كله من سوء عواقب الذنوب، كما قيل:

إذا كنت في نعمةٍ فأرعها فإنَّ المعاصي تُزيلُ النعمَ^(١)
فما حُفِظت نعمةُ الله بشيءٍ قط مثل طاعته، ولا حصلت فيها الزيادة بمثل شكره، ولا زالت عن العبد بمثل معصيته لربه، فإنها نارُ النعم التي تعملُ فيها كما تعمل النار في الحطبِ اليابس.

ومن سافر بفكره في أحوال العالم استغنى عن تعريف غيره له، والمقصود أن هذه الأسباب شرورٌ ولا بدَّ. وأما كون مسبباتها شرورًا؛ فلأنها آلامٌ نفسيةٌ وبدنيةٌ فيجتمعُ على صاحبها مع شدة الألم الحسي ألمُ الرُّوح بالهموم والغموم، والأحزان والحسرات.

ولو تفتَّنَ العاقلُ اللَّبيبُ لهذا حقَّ التَّقَطُّنِ لأعطاه حقَّه من الحذر والجِدِّ في الهرب، ولكن قد ضَرَبَ على قلبه حجاب الغفلة ليقضي

(١) ذكره في «نفع الطيب»: (١٧٤/٢).

الله أمرًا كان مفعولاً. فلو تَبَقَّظَ حَقَّ التَّيَقُّظِ لَتَقَطَّعَتْ نَفْسُهُ فِي الدُّنْيَا حَسْرَاتٍ عَلَى مَا فَاتَهُ مِنْ حَظِّهِ الْعَاجِلِ وَالْأَجَلَ مِنَ اللَّهِ، وَإِنَّمَا يَظْهَرُ لَهُ هَذَا حَقِيقَةُ الظُّهُورِ عِنْدَ مَفَارِقَةِ هَذَا الْعَالَمِ، وَالْإِشْرَافِ وَالْإِطْلَاعِ عَلَى عَالَمِ الْبَقَاءِ، فَحِينَئِذٍ يَقُولُ: ﴿يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤] و ﴿بِحَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦].

ولما كان الشرُّ هو الآلامُ وأسبابها، كانت استعاذاتُ النبي ﷺ جميعها مدارها على هذين الأصلين، فكل ما استعاذَ منه أو أمر بالاستعاذة منه، فهو: إما مؤلمٌ وإما سببٌ إليه. فكان يتعوذُ في آخر الصلاة من أربع، وأمر بالاستعاذة منهن، وهي: «عذاب القبر، وعذاب النار»، فهذان أعظم المؤلِّمات، و«فتنة المحيا والممات»، وفتنة المسيح الدجال»^(١). (ق/١٧٢) وهذان سبب العذاب المؤلم، فالفتنة سبب العذاب، وذَكَرَ الفتنة خصوصاً (ظ/١٣٠ب) وعموماً، وذكر نوعي الفتنة، فإن الفتنة إما في الحياة وإما بعد الموت، وفتنة الحياة قد يترأخى عنها العذاب مدَّة، وأما فتنة الموت فيَتَّصَلُ بِهَا الْعَذَابُ مِنْ غَيْرِ تَرَاخٍ، فَعَادَتِ الْإِسْتِعَاذَةُ إِلَى الْأَلَمِ وَالْعَذَابِ وَأَسْبَابِهِمَا، وَهَذَا مِنْ أَكْدِ أَدْعِيَةِ الصَّلَاةِ، حَتَّى أَوْجِبَ بَعْضُ السَّلَفِ وَالْخَلْفِ الْإِعَادَةَ عَلَى مَنْ لَمْ يَدْعُ بِهِ فِي التَّشَهُدِ الْأَخِيرِ، وَأَوْجِبَهُ ابْنُ حَزْمٍ فِي كُلِّ تَشْهَدٍ فَإِنْ لَمْ يَأْتِ بِهِ بَطَلَتْ صَلَاتُهُ^(٢).

ومن ذلك قوله: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ وَالْعَجْزِ

(١) أخرجه البخاري رقم (١٣٧٧)، ومسلم رقم (٥٨٨) من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه -.

(٢) انظر «المحلى»: (٣/٢٧١).

والكسل والجبن والبخل وضلع الدين وغلبة الرجال^(١)، فاستعاذ من ثمانية أشياء كل اثنين منها قرينان، فالهم والحزن قرينان، [وهما] من آلام الرُّوح ومعذباتها، والفرق بينهما أن الهمَّ توقُّعُ الشرِّ في المستقبل، والحزن التألم على حصول المكروه في الماضي أو فوات المحبوب، وكلاهما تألمٌ وعذاب يردُّ على الروح، فإن تعلقَ بالماضي سُمِّي حزناً، وإن تعلقَ بالمستقبل سُمِّي همًّا.

والعجز والكسل قرينان، وهما من أسباب الألم؛ لأنهما يستلزمان فوات المحبوب، فالعجز يستلزم عدم القدرة، والكسل يستلزم عدم إرادته، فتتألم الرُّوح لفواته بحسب تعلقها به، والتذاذها بإدراكه لو حصل.

والجبن والبخل قرينان؛ لأنهما عدمُ النفع بالمال والبكدن، وهما من أسباب الألم، لأن الجبان تفوتهُ محبوبات ومفرحات وملذوذات عظيمة لا تُنال إلا [بالبدل والشجاعة]^(٢) فالبخل يحولُ بينه وبينها أيضاً، فهذان الخُلُقان من أعظم أسباب الآلام.

وضلع الدين وقهر الرجال قرينان، وهما مؤلمان للنفس معذبان لها؛ أحدهما قهر بحق وهو ضلع الدين. والثاني قهر بباطل وهو غلبة الرجال، وأيضاً فضلعُ الدين قهرٌ بسبب من العبد في الغالب، وغلبة الرجال قهر^(٣) بغير اختياره.

(١) أخرجه البخاري رقم (٢٨٩٣) ومسلم رقم (٢٧٠٦) من حديث أنسٍ - رضي الله عنه - .

(٢) (ق): «بالشجاعة والإقدام» مع تكرار، و(ظ ود): «بالبدل والسخاء».

(٣) (ق): «فهى».

ومن ذلك تَعَوُّذُهُ ﷺ: «مِنَ الْمَأْتَمِ وَالْمَغْرَمِ»^(١) فإنهما يسببان الألم العاجل والآجل^(٢)، ومن ذلك قوله: «أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ»^(٣)، فالسخط سبب الألم، والعقوبة هي الألم، فاستعاذ من أعظم الآلام وأقوى أسبابها.

فصل

والشرُّ المستعاذُ منه نوعان:

أحدهما: موجود يُطلب رفعه.

والثاني: معدومٌ يُطلبُ بقاءه على العدم وأن لا يوجد.

كما أن الخيرَ المطلق (ق/١٧٢ب) نوعان:

أحدهما: موجودٌ فيطلبُ دوامه وثباته وأن لا يسلبه.

والثاني: معدومٌ فيطلب وجوده وحصوله.

فهذه الأربعة هي أمهات مطالب السائلين من ربِّ العالمين، وعليها مدارُ طَلَبَاتِهِمْ، وقد جاءت هذه المطالبُ الأربعة في قوله تعالى حكاية^(٤) عن دعاء عباده في آخر آل عمران في قولهم: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ [آل عمران: ١٩٣] فهذا الطلب لدفع الشر الموجود، فإن

(١) أخرجه البخاري رقم (٨٣٢)، ومسلم رقم (٥٨٩) من حديث عائشة - رضي الله عنها - .

(٢) من (ق).

(٣) تقدم ٢٩٤/١.

(٤) (ق): «في الآية».

الذنوب والسيئات شر كما تقدم بيانه .

ثم قال : ﴿ وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾ (١٩٣) ، فهذا طلبٌ لدوام الخير الموجود وهو الإيمان ، حتى يتوفاهم عليه ، فهذانِ قسمان .

ثم قال : ﴿ رَبَّنَا وَءَايَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ ﴾ [آل عمران : ١٩٤] فهذا طلب للخير المعدوم أن يؤتيهم إياه .

ثم قال : ﴿ وَلَا نُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ فهذا طلبٌ أن لا يقع^(١) بهم الشرُّ المعدوم ، وهو خزيُّ يوم القيامة ، فانتظمت الآيتان المطالب الأربعة أحسنَ انتظام ، مرتبةً أحسنَ ترتيب ، قُدِّمَ فيها النوعان اللذان في الدنيا وهما : المغفرة ، ودوامُ الإسلام إلى الموت ، ثم أتبعوا بالنوعين اللذين في الآخرة وهما : أن يُعطوا ما وُعدوه على السنة رسله ، وأن لا يُخزِيَهُم يوم القيامة .

إذا عُرِفَ هذا ؛ فقولهُ ﷺ (ظ/١١٣١) في تشهّد الخُطبة : «وَتَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا ، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا»^(٢) ، يتناولُ الاستعاذة من شرِّ النفس الذي هو معدومٌ لكنه فيها بالقوّة ، فيسأل دفعه وأن لا يوجد .

وأما قوله : «مِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا» ؛ ففيه قولان :

أحدهما : أنه استعاذةٌ من الأعمال السيئة التي قد وُجِدَتْ ، فيكون الحديثُ قد تناول نوعي الاستعاذة من الشرِّ المعدوم الذي لم يوجد ، ومن الشر الموجود ، فطلب دفع الأول ورفع الثاني .

(١) كذا في الأصول ، وفي «المنيرية» : «يوقع» .

(٢) تقدم ٤٤٨/٢ .

والقول الثاني: إن سيئات الأعمال هي: عقوباتها وموجباتها السيئة التي تسوء صاحبها، وعلى هذا يكون من استعادة الدفع أيضاً لكنه^(١) دفع المسبب، والأول دفع السبب، فيكون قد استعاد من حصول الألم وأسبابه، وعلى الأول يكون إضافة السيئات إلى الأعمال من باب إضافة النوع إلى جنسه، فإن الأعمال جنسٌ وسببها^(٢) نوعٌ منها. وعلى الثاني يكون من باب إضافة المسبب إلى سببه، والمعلول إلى علته، كأنه قال: من عقوبة عملي، والقولان (ق/١٧٣) محتملان، فتأمل أيهما أليق بالحديث وأولى به، فإن مع كل واحد منهما نوعاً من الترجيح.

فيترجح الأول: بأن منشأ الأعمال السيئة من شر النفس، فشر النفس يولد الأعمال السيئة فاستعاد من صفة النفس، ومن الأعمال التي تحدث عن تلك الصفة، وهذان جماع الشر وأسباب كل ألم، فمتى عوفي منها عوفي من الشر بحذافيره^(٣).

ويترجح الثاني: بأن سيئات الأعمال هي العقوبات التي تسوء العامل، وأسبابها شر النفس، فاستعاد من العقوبات والآلام وأسبابها، والقولان في الحقيقة متلازمان، والاستعادة من أحدهما تستلزم الاستعادة من الآخر.

فصل

ولما كان الشر له سبب هو مصدره، ومورد هو منتهاه، وكان

(١) من (ق).

(٢) «المنيرية»: «وسياتها».

(٣) من قوله: «التي تحدث...» إلى هنا ساقط من (ق).

السبب إما من ذات العبد وإما من خارج، ومورده ومنتهاه، إما نفسه وإما غيره = كان هنا أربعة أمور: شرٌّ مصدره من نفسه ويعود على نفسه تارة وعلى غيره أخرى، وشرٌّ مصدره من غيره وهو السبب فيه، ويعودُ على نفسه تارةً وعلى غيره أخرى.

جمع النَّبِيِّ ﷺ هذه المقامات الأربعة في الدعاء الذي علمه الصِّدِّيقُ أن يقولَه إذا أصبح وإذا أمسى، وإذا أخذ مضجعه: «اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي، وَشَرِّ الشَّيْطَانِ وَشَرِّكَه، وَأَنْ أَقْتَرِفَ عَلَى نَفْسِي سُوءًا أَوْ أُجْرَهُ إِلَى مُسْلِمٍ»^(١) فذكر مصدرَي الشَّرِّ وهما النفسُ والشَّيْطَانُ، وذكر مَوْرِدَيْهِ ونهائِيهِ، وهما: عودُهُ على النفس أو على أخيه المسلم، فجمع الحديثُ مصادرَ الشَّرِّ ومواردهُ في أوجز لفظٍ وأخصره وأجمعه وأبينه.

فصل

فإذا عُرِفَ هذا فلتتكلَّمْ على الشُّرورِ المستعاذِ منها في هاتين السورتين:

الشَّرُّ الأوَّل: العام في قوله: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾^(٢) و(ما) ههنا موصولة ليس إلا، والشَّرُّ مسند في الآية إلى المخلوق المفعول، لا إلى خَلَقَ الرَّبُّ تعالى الذي هو فعله وتكوينه، فإنه لا شرٌّ فيه بوجهٍ ما، فإن الشَّرَّ لا يدخل في شيءٍ من صفاته ولا في أفعاله، كما لا

(١) أخرجه أبو داود رقم (٥٠٦٧)، والترمذي رقم (٣٣٩٢)، وابن حبان «الإحسان»: (٢٤٢/٣)، والحاكم: (٥١٣/١) وغيرهم من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال الترمذي: «حسن صحيح» وصححه ابن حبان والحاكم والذهبي.

يلحق ذاته تبارك وتعالى، فإن ذاته لها الكمال المطلق الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه، وأوصافه كذلك لها الكمال المطلق والجلال التأم ولا عيب فيها ولا نقص بوجه ما.

وكذلك أفعاله كلها خيرات محضة لا شر فيها أصلاً، ولو فعل الشر سبحانه لاشتق له منه اسم ولم تكن أسماؤه كلها حسنى، ولعاد إليه منه حكم، تعالى وتقدس عن ذلك، وما يفعله من العدل (ق/١٧٣ب) بعباده وعقوبة (ظ/١٣١ب) من يستحق العقوبة منهم هو خير محض، إذ هو محض العدل والحكمة، وإنما يكون شراً بالنسبة إليهم، فالشر وقع في تعلقه بهم وقيامه بهم^(١)، لا في فعله القائم به تعالى، ونحن لا نُنكر أن الشر يكون في مفعولاته المنفصلة، فإنه خالق الخير والشر.

ولكن هنا أمران ينبغي أن يكونا منك على بال.

أحدهما: أن ما هو شرٌّ أو متضمنٌ للشر فإنه لا يكون إلا مفعولاً منفصلاً، لا يكون وصفاً له، ولا فعلاً من أفعاله.

الثاني: أن كونه شراً هو أمر نسبي إضافي، فهو خيرٌ من جهة تعلق فعل الرب وتكوينه به، وشرٌّ من جهة نسبه إلى من هو شر في حقه، فله وجهان، هو من أحدهما خيرٌ، وهو الوجه الذي نُسب منه إلى الخالق - سبحانه وتعالى - خلقاً وتكويناً ومشيةً، لما فيه من الحكمة البالغة التي استأثر بعلمها، وأطلع من شاء من خلقه على ما شاء منها، وأكثرُ الناس تضيقُ عقولهم عن مبادئ معرفتها، فضلاً عن حقيقتها، فيكفيهم الإيمان المجمل بأن الله - سبحانه - هو الغنيُّ

(١) (ق): «وقيامهم به».

الحميدُ، وفاعل الشر لا يفعله إلا لحاجته المنافية لغناه أو لنقصه وعييه المنافي لحمده، فيستحيلُ صدورُ الشرِّ من الغني الحميد فعلاً، وإن كان هو الخالقُ للخير والشرِّ، فقد عرفتَ أن كونه شرّاً هو أمرٌ إضافيٌّ، وهو في نفسه خير من جهة نسبه إلى خالقه ومبدعه.

فلا تغفلُ عن هذا الموضوع، فإنه يفتحُ لك باباً عظيماً من معرفة الرّبِّ ومحبه، ويزيلُ عنك شُبُهَات حارثٌ فيها عقولُ أكثر الفضلاء. وقد بسطت هذا في كتاب «التحفة المكية»، وكتاب «الفتح القدسي»^(١). وغيرهما.

وإذا أشكل عليك هذا فأنا أوضحه لك بأمثلة:

أحدها: أن السّارق إذا قُطِعَتْ يَدُهُ فَقَطَعُهَا شرّاً بالنسبة إليه، وخيراً محض بالنسبة إلى عموم الناس، لما فيه من حفظ أموالهم ودفع الضّرر عنهم، وخيراً بالنسبة إلى مُتَوَلِّي القطع أمراً وحكماً؛ لما في ذلك من الإحسان إلى عبيده عموماً بإتلاف هذا العضو المؤذي لهم المضرّ بهم، فهو محمودٌ على حكمه بذلك، وأمره به، مشكورٌ عليه، يستحقُّ عليه الحمدَ من عباده والثناء عليه والمحبة.

وكذلك الحكم بقتل من يصولُ عليهم في دمائهم وحُرْمَاتهم، وجَلْد من يصولُ عليهم في أعراضهم، فإذا كان هذا عقوبةً من يصولُ عليهم في دنياهم فكيف عقوبةً من يصولُ عليهم في^(٢) أديانهم ويحولُ بينهم وبين الهدى الذي بعث الله به (ق/١٧٤) [٣] رسله، وجعل

(١) تقدم الكلام عليهما.

(٢) (ظ و.د): «على أديانهم».

(٣) سقطت (الورقة ١٧٤) من (ق) وهي من قوله: «رسله...» إلى قوله: «فما أحوج القلوب» ص/٧٢٤.

سعادة العباد في معاشهم ومعادهم منوطة به؟! .

أفليس في عقوبة هذا الصائل خيرٌ محضٌ وحكمةٌ وعدلٌ وإحسان إلى العبيد؟! وهي شرٌّ بالنسبة إلى الصائل الباغي، فالشرُّ ما قام به من تلك العقوبة، وأما ما نُسِبَ إلى الربِّ منها من المشيئة والإرادة والفعل فهو عينُ الخير والحكمة، فلا يغلُظ حجابك عن فهم هذا النبأ العظيم، والسِّرِّ الذي يُطلعك على مسألة القَدَر، ويفتح لك الطريقَ إلى الله ومعرفة حكمته ورحمته وإحسانه إلى خلقه، وأنه سبحانه كما أنه البرُّ الرحيم الودودُ المحسنُ، فهو الحكيم الملك العدل، فلا تناقض حكمته رحمته، بل يضع رحمته وبرّه وإحسانه موضعه، ويضع عقوبته وعدله وانتقامه وبأسه موضعه، وكلاهما مقتضى عزِّته وحكمته وهو العزيز الحكيم، فلا يليق بحكمته أن يضع رضاه ورحمته موضع العقوبة والغضب، ولا يضع غضبه وعقوبته موضع رضاه ورحمته، ولا يلتفت إلى قول من غلُظ حجابُه عن الله تعالى: إن الأمرين بالنسبة إليه على حدٍّ سواء، ولا فرق أصلاً، وإنما هو محض المشيئة بلا سبب ولا حكمة .

وتأمل القرآن من أوله إلى آخره، كيف تجده كفيلاً بالردِّ على هذه المقالة، وإنكارها (ظ/١٣٢) أشدَّ الإنكار، وتنزيه نفسه عنها، كقوله تعالى: ﴿ أَفَجَعَلُ الْمُشْرِكِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾ (٢٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٢٦﴾ [القلم: ٣٥ - ٣٦] وقوله: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَحْيُهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (٢١) [الجاثية: ٢١] وقوله: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ (٢٨) [ص: ٢٨] فأنكر سبحانه على من

ظن هذا الظن ونزّه نفسه عنه، فدل على أنه مستقرّ في الفِطْر والعقول السليمة: أن هذا لا يكون ولا يليق بحكمته وعزّته وإلاهيته، لا إله إلا هو، تعالى عما يقول الجاهلون علوًّا كبيرًا.

وقد فطر الله عقول عباده على استقباح وضع العقوبة والانتقام في موضع الرحمة والإحسان، ومكافأة الصُّنع الجميل بمثله وزيادة، فإذا وضع العقوبة موضع ذلك استنكرته فطرهم وعقولهم أشدّ الاستنكار، واستهجنته أعظم الاستهجان، وكذلك وضع الإحسان والرحمة والإكرام في موضع العقوبة والانتقام، كما إذا جاء إلى من يسيء إلى العالم بأنواع الإساءة في كلِّ شيءٍ من أموالهم وحریمهم ودمائهم، فأكرمه غاية الإكرام ورفعه وكرّمه، فإن الفِطْر والعقول تأبى استحسانًا هذا، وتشهد على سَفَه من فعله.

هذه فطرة الله التي فطر الناس عليها، فما للعقول والفِطْر لا تشهد حكمته البالغة وعزته وعدله في وضع عقوبته في أولى المنحال بها وأحقّها بالعقوبة؟ وأنها لو أوليت النعم لم تحسن بها ولم تلق، ولظهرت مناقضة الحكمة، كما قال الشاعر:

نِعْمَةُ اللَّهِ لَا تُعَابُ وَلَكِنْ رَبِّمَا اسْتُفْبِحَتْ عَلَى أَقْوَامٍ

فهكذا نعم الله لا تليق ولا تحسن ولا تجمل بأعدائه الصّادقين عن سبيله، السّاعين في خلاف مرضاته، الذين يرضون إذا غضب، ويغضبون إذا رضي، ويعطّلون ما حكم به، ويسعون في أن تكون الدعوة لغيره، والحكم لغيره، والطاعة لغيره، فهم مضادون في كلِّ ما يُريد، يحبون ما يُبغضه ويدعون إليه، ويُبغضون ما يُحبّه وينفرون عنه، ويوالون أعداءه وأبغض الخلق إليه، ويظاهرونهم عليه وعلى

رسوله، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٥] وقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَلَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ [الكهف: ٥٠].

فتأمل ماتحت هذا الخطاب الذي يسلب الأرواح حلاوةً وعقاباً^(١) وجلالةً وتهديداً، كيف صدره بإخبارنا أنه أمر إبليس بالسجود لأينا، فأبى ذلك، فطرده ولعنه وعاداه من أجل إباته عن السجود لأينا، ثم أنتم توالونه من دوني وقد لعنته وطرده؛ إذ^(٢) لم يسجد لأبيكم، وجعلته عدواً لكم ولأبيكم فواليتموه وتركتموني، أفليس هذا من أعظم الغبن وأشد الحسرة عليكم؟ ويوم القيامة يقول تعالى: أليس عدلاً مني أن أولي كل رجل منكم ما كان يتولى في دار الدنيا، فليعلمن أولياء الشيطان كيف حالهم يوم القيامة إذا ذهبوا مع أوليائهم وبقي أولياء الرحمن لم يذهبوا مع أحد فيتجلى لهم، ويقول: «الآن تذهبون حيث ذهب الناس؟ فيقولون: فارقنا الناس أحوج ما كنا إليهم، وإنما ننتظر ربنا الذي كنا نتولاه ونعبده فيقول: هل بينكم وبينه علامة تعرفونه بها؟ فيقولون: نعم إنه لا مثل له، فيتجلى لهم ويكشف عن ساق فيخرون له سجداً»^(٣).

فيا قرّة عيون أوليائه بتلك الموالاة، ويا فرحهم إذا ذهب الناس مع أوليائهم وبقوا مع مولاهم الحق، فسيعلم المشركون به الصادون عن سبيله أنهم ما كانوا أولياءه، إن أولياءه إلا المتقون، ولكن أكثرهم لا يعلمون.

(١) كذا، ولعلها: عتاباً.

(٢) (ظ و د): «إن».

(٣) قطعة من حديث طويل أخرجه البخاري رقم (٧٤٣٩)، ومسلم رقم (١٨٣) من حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - بنحوه.

ولا تستطل هذا البسط، فما أحوج القلوب [ق/١٧٥] إلى معرفته وتعقله، ونزولها منه منازلها في الدنيا لتنزل في جوار ربها في الآخرة مع الذين أنعم الله تعالى عليهم من النبيين والصدّيقين، والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.

فصل

إذا عُرِفَ هذا عُرِفَ معنى قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «لبيك وسعدتك والخير في يديك، والشر ليس إليك»^(١)، وأنّ معناه أجل وأعظم من قول من قال: «والشر لا يتقربُ به إليك»، وقول من قال: «والشر لا يصعدُ إليك» وأن هذا الذي قالوه إنما يتضمّن تنزيهه عن صعود الشرّ إليه والتقرب به إليه، لا يتضمّن تنزيهه في ذاته وصفاته وأفعاله عن الشرّ، بخلاف لفظ المعصوم الصادق المصدّق^(٢)، فإنه يتضمّن تنزيهه في ذاته تبارك وتعالى عن نسبة الشرّ إليه بوجه ما، لا في صفاته، ولا في أفعاله، ولا في أسمائه، وإن دخل في مخلوقاته، كقوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾﴾ [الفلق: ١ - ٢].

وتأمل طريقة القرآن في إضافة الشرّ تارة إلى سببه ومن قام به، كقوله: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [البقرة: ٢٥٤] وقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الفَاسِقِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١٠٨]، وقوله: ﴿فِيظَلِمِ مِنَ الذِّينِ هَادُوا ﴿١٦٠﴾﴾ [النساء: ١٦٠]، وقوله: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِغَيْبِهِمْ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأنعام: ١٤٦] وقوله: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [الزخرف: ٧٦]، وهو في القرآن أكثر من أن يذكر ههنا عشر معشاره، وإنما المقصود التمثيل.

(١) أخرجه مسلم رقم (٧٧١) من حديث علي - رضي الله عنه - .

(٢) (ق): «المصدوق» .

وتارة بَحَذَفَ فاعله كقوله تعالى حكاية عن مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠] فحذفوا فاعل الشر ومريده وصرَّحوا بمريد الرشد.

ونظيره في الفاتحة: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]، فذكر النعمة مضافة إليه سبحانه، والضلال منسوبًا إلى من قام به، والغضب محذوفًا فاعله. ومثله قول الخضر في السفينة: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩] وفي الغلامين: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ﴾ [الكهف: ٨٢].

ومثله قوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧] فنسب هذا التزيين المحبوب إليه، وقال: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤] فحذف الفاعل المزيَّن.

ومثله قول الخليل ﷺ: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [٧٨] وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ [٧٩] وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ [٨٠] وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ [٨١] وَالَّذِي أَطْعَمُنِي أَن يَقْبَلَنِي يَوْمَ أَن خَلَقْتَنِي يَوْمَ أَن خَلَقْتَنِي [٨٢] فنسب (ق/١٧٥ب) إلى ربه كل كمال من هذه الأفعال، ونسب إلى نفسه النقص منها، وهو المرض والخطيئة.

وهذا كثير في القرآن الكريم، ذكرنا منه أمثلة كثيرة في كتاب «الفوائد المكية»، وبيننا هناك السرَّ في مجيء: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ﴾ [البقرة: ١٢١] ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [البقرة: ١٠١] والفرق بين الموضوعين، وأنه حيث ذكر الفاعل كان من آتاه الكتاب واقعا في سياق المدح،

وحيثُ حذفه كان من أوتيه واقعا في سياق الذمِّ أو منقسما، وذلك من أسرار القرآن الكريم.

ومثله: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [فاطر: ٣٢]، وقال: ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَنَنْزِلُ سَنًا مِنْهُ مُرِيْبٌ ﴾ [الشورى: ١٤] وقوله: ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى ﴾ [الأعراف: ١٦٩] فهذا خلفٌ سوءٌ^(١)، وبالجملة فالذي يضاف إلى الله تعالى كله خيرٌ وحكمة ومصالحة وعدل، والشرُّ ليس إليه.

فصل

وقد دخل في قوله تعالى: ﴿ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ الاستعاذة من كلِّ شرٍّ في أي مخلوق قام به الشر من حيوان أو غيره، إنسيًّا كان أو جنيا، أو هامةً أو دابةً، أو ريحا أو صاعقة، أو أي نوع كان من أنواع البلاء.

فإن قلت: فهل في (ما) ههنا عموم؟

قلت: فيها عمومٌ تقييديٌّ وصفيٌّ لا عمومٌ إطلاقيٌّ، والمعنى: من شرِّ كلِّ مخلوق فيه شرٌّ، فعمومها من هذا الوجه، وليس المراد الاستعاذة من شرِّ كلِّ ما خلقه الله تعالى، فإن الجنة وما فيها ليس فيها شرٌّ، وكذلك الملائكة والأنبياء فإنهم (ظ/١١٣٣) خيرٌ محضٌ، والخير كله حصل على أيديهم، فالاستعاذة من ﴿ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ تعمُّ شرِّ كلِّ مخلوق فيه شرٌّ، وكل شرٌّ في الدنيا والآخرة، وشر شياطين الإنس والجن، وشر السباع والهوامِّ، وشر النار والهواء، وغير ذلك.

(١) «فهذا خلفٌ سوءٌ» من (ق).

وفي «الصحيح» عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ نَزَلَ مَنَزَلًا فَقَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْهُ» رواه مسلم^(١).

روى أبو داود في «سننه»^(٢) عن عبدالله بن عمر قال: كان رسول الله ﷺ إذا سافر فأقبل الليل قال: «يا أَرْضُ رَبِّي وَرَبِّكَ اللهُ، أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّكَ وَشَرِّ مَا فِيكَ وَشَرِّ مَا خُلِقَ فِيكَ وَشَرِّ مَا يَدْبُ عَلَيْكَ، أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ أَسَدٍ وَأَسْوَدٍ، وَمِنْ الْحَيَّةِ وَالْعَقْرَبِ، وَمِنْ سَاكِنِ الْبَلَدِ، وَمِنْ وَالِدٍ وَمَا وَلَدَ»^(٣).

وفي الحديث الآخر: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهَا بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ، مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَذَرَأَ وَبَرَأَ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا، وَمِنْ شَرِّ مَا ذَرَأَ فِي الْأَرْضِ وَمَا يُخْرِجُ مِنْهَا، وَمِنْ شَرِّ فِتَنِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ طَارِقٍ إِلَّا طَارِقًا يَطْرُقُ بِخَيْرٍ يَا رَحْمَنُ»^(٤).

فصل

الشر الثاني: شر الغاسق إذا وقب (ق/١١٧٦) فهذا خاصٌّ بعد

(١) رقم (٢٧٠٨) من حديث خولة بنت حكيم السُّلَمِيَّة - رضي الله عنها - .

(٢) رقم (٢٦٠٣).

(٣) وأخرجه أحمد: (٣٠١/١٠) رقم (٦١٦١)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة»

رقم (٥٦٣)، وابن خزيمة رقم (٢٥٧٢)، والحاكم: (١٠٠/٢) وغيرهم.

والحديث صححه ابن خزيمة والحاكم؛ لكن فيه الزبير بن الوليد لم يوثقه

معتبر، وقد تفرَّد بهذا الحديث.

(٤) أخرجه أحمد: (٢٠٠/٢٤) رقم (١٥٤٦٠)، وأبو يعلى رقم (٦٨٤٤) وغيرهم من طرق

عن جعفر بن سليمان الضبعي عن أبي التَّيَّاح عن عبدالرحمن بن خنيس التميمي بنحوه.

وقد تفرَّد به جعفر، وهو ممن ينفرد بالمناكير.

عام، وقد قال أكثرُ المفسرين: إنه الليل. قال عبدالله بن عباس: الليلُ إذا أقبلَ بظلمته من الشرق، ودخل في كلِّ شيءٍ وأظلم^(١)، والغسقُ: الظُّلْمَةُ. يقال: غَسَقَ اللَّيْلُ، وأغسَقَ: إذا أظلم، ومنه قوله تعالى: ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِكَ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ ﴾ [الإسراء: ٧٨].

وكذلك قال الحسنُ ومجاهد: الغاسقُ إذا وقب: الليل إذا أقبل ودخل، والوقوب: الدخولُ، وهو دخولُ الليلِ بغروب الشمس، وقال مقاتل: يعني ظُلمةَ الليلِ إذا دخل سواده في ضوء النهار. وفي تسمية الليل غاسقًا قولٌ آخرٌ: إنه من البرد، والليل أبردُ من النهار، والغسقُ: البردُ، وعليه حمل ابن عباس قوله تعالى: ﴿ هَذَا فَلْيَذوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ ﴾ [ص: ٥٧] وقوله: ﴿ لَا يَذوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴾ [٢١] إِلَّا حَمِيمًا وَعَسَاقًا ﴾ [النبا: ٢٤ - ٢٥] قال: هو الزمهريرُ يحرقهم ببرده كما تحرقهم النار بحرهما. وكذلك قال مجاهد ومقاتل: هو الذي انتهى برده^(٢).

ولا تنافي بين القولين: فإن الليلَ باردٌ مظلم، فمن ذكر بردهً فقط أو ظلمته فقط، اقتصرَ على أحدٍ وصفيه، والظلمةُ في الآية أنسبُ لمكان الاستعاذة، فإن الشرَّ الذي ينشأ بسبب^(٣) الظلمةِ أولى بالاستعاذة من البرد الذي في الليل، ولهذا استعاذ بربِّ الفلق الذي هو الصبحُ والنور، من شرِّ الغاسق الذي هو الظلمة، فناسب الوصفُ المستعاذ به للمعنى المطلوب بالاستعاذة، كما سنزيده تقريرًا عن قريب إن شاء الله.

(١) انظر: «تفسير الطبري»: (١٢/٧٤٨ - ٧٤٩).

(٢) انظر «تفسير الطبري»: (١٠/٥٩٩)، و«الدر المنثور»: (٥/٥٩٤) آية (ص)،

و«الطبري»: (١٢/٤٠٧)، و«الدر»: (٦/٥٠٣) آية (النبا).

(٣) (ظ و د): «يناسب».

فإن قيل: فما تقولون فيما رواه الترمذي^(١) من حديث ابن أبي ذئب، عن الحارث بن عبد الرحمن، عن أبي سلمة، عن عائشة قالت: «أخذ النبي ﷺ بيدي فنظر إلى القمر فقال: «يا عائشة استعيني بالله من شرِّ هذا، فإنَّ هذا هو الغاسقُ إذا وَقَبَ»^(٢). قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح»، وهذا أولى من كلِّ تفسير فيتعيَّن المصيرُ إليه؟

قيل: هذا التفسيرُ حقٌّ، ولا يناقضُ التفسيرَ الأوَّلَ بل يوافقه ويشهدُ بصحَّته، فإنَّ الله تعالى قال: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢] فالقمر هو آية الليل وسلطانه، فهو أيضاً: غاسقٌ إذا وَقَبَ، كما أن الليلَ غاسقٌ إذا وَقَبَ، والنبيُّ ﷺ أخبر عن القمر بأنه غاسقٌ إذا وَقَبَ، وهذا خبر صدق، وهو أصدقُ الخبر، ولم ينفِ عن الليلِ اسمَ الغاسقِ إذا وَقَبَ، وتخصيص النبي ﷺ له بالذكر لا ينفي (ق/١٧٦ب) شمولَ الاسمِ لغيره.

ونظير هذا قوله في المسجد الذي أُسِّس على التقوى، وقد سُئل عنه (ظ/١٣٣ب) فقال: «هُوَ مَسْجِدِي هَذَا»^(٣) ومعلومٌ أن هذا لا ينفي كونَ مسجدِ قُبَاءِ مؤسساً على التقوى، [بل ثبت أن مسجده أحق بالدخول في هذا الاسم، وأنه أحق بأن يكون مؤسساً على التقوى]^(٤) من ذلك.

(١) (ق): «في جامعه».

(٢) أخرجه الترمذي رقم (٣٣٦٦)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» رقم (٣٠٥)، وأحمد (٦١/٦ ومواضع أخرى)، والحاكم (٥٤٠/٢) من حديث عائشة - رضي الله عنها -.

والحديث قال فيه الترمذي «حسن صحيح»، وصححه الحاكم، وحسنه الحافظ في «الفتح»: (٦١٣/٨).

(٣) أخرجه مسلم رقم (١٣٩٨) من حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه -.

(٤) ما بين المعكوفين من (ق).

ونظيره أيضًا: قوله في عَلِيٍّ وفاطمة والحسن والحسين - رضي الله عنهم أجمعين - : «اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي»^(١)، فإن هذا لا ينفي دخول غيرهم من أهل بيته في لفظ أهل البيت، ولكن هؤلاء أحق من دخل في لفظ أهل بيته.

ونظير هذا قوله: «لَيْسَ الْمِسْكِينُ بِهَذَا الطَّوَّافِ الَّذِي تَرُدُّهُ اللَّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَلَكِنَّ الْمِسْكِينَ الَّذِي لَا يَسْأَلُ النَّاسَ شَيْئًا، وَلَا يُعْطَنُ لَهُ فَيُتَّصَدَّقَ عَلَيْهِ»^(٢) وهذا لا ينفي اسم المسكينة عن الطواف، بل ينفي اختصاص الاسم به، ويبين أن تناول المسكين لغير السائل أولى من تناوله له.

ونظير هذا قوله: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ، وَلَكِنَّ الشَّدِيدَ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ»^(٣) فإنه لا يقتضي نفي الاسم عن الذي يصرع الرجال، ولكن يقتضي أن ثبوته للذي يملك نفسه عند الغضب أولى، ونظيره [الغسق]^(٤) والوقوب وأمثال ذلك، فكذلك قوله في

(١) أخرجه أحمد: (١٩٥/٢٨) رقم (١٦٩٨٨)، وابن حبان «الإحسان»: (٤٣٢/١٥)، والحاكم: (٤١٦/٢)، والبيهقي: (١٥٢/٢)، وغيرهم من حديث واثلة بن الأسقع - رضي الله عنه - .

والحديث صححه ابن حبان والبيهقي، وصححه الحاكم على شرط مسلم. وللحديث شاهد من حديث أم سلمة أخرجه أحمد: (٢٩٢/٦)، والحاكم: (٤١٦/٢).

(٢) أخرجه البخاري رقم (١٤٧٦)، ومسلم رقم (١٠٣٩) من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - .

(٣) أخرجه البخاري رقم (٦١١٤)، ومسلم رقم (٢٦٠٩) من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - .

(٤) في الأصول: «المغلس» والمثبت من «المنيرية».

القمر: «هَذَا هُوَ الْغَاسِقُ إِذَا وَقَبَ»، لا ينفي أن يكون الليلُ غاسقًا، بل كلاهما غَاسِقٌ، [والنبي ﷺ أشار إلى آية الليل وسلطانه والمفسرون ذكروا الليلَ نفسه، والله أعلم] (١).

فإن قيل: فما تقولون في القول الذي ذهب إليه بعضهم أن المراد به القمرُ إذا خَسَفَ واسوَدَّ؟ وقوله: «وقب» أي: دَخَلَ في الخُسوف أو غاب خاسقًا؟ (٢).

قيل: هذا القولُ ضعيفٌ، ولا نعلمُ به سلفًا، والنبي ﷺ لمَّا أشار إلى القمر وقال: «هَذَا الْغَاسِقُ إِذَا وَقَبَ» لم يكن خاسقًا إذ ذاك، وإنما كان وهو مستنيرًا، ولو كان خاسقًا لذكرته عائشة، وإنما قالت: نظر إلى القمر وقال: «هَذَا هُوَ الْغَاسِقُ» (٣)، ولو كان خاسقًا لم يصحَّ أن يحذفَ ذلك الوصف منه، فإنَّ ما أُطْلِقَ عليه اسم الغاسق باعتبار صفة لا يجوزُ أن يطلقَ عليه بدونها لما فيه من التلبس.

وأيضًا: فإن اللغة لا تساعد على هذا، فلا نعلمُ أحدًا قال: الغاسقُ هو القمرُ في حال خسوفه. وأيضًا: فإن الوُقُوب لا يقولُ أحدٌ من أهل اللغة: إنه الخسوفُ، وإنما هو الدُّخُولُ من قولهم: «وَقَبَتِ الْعَيْنُ» إذا غارت. و«رَكِيَّةٌ وَقَبَاءٌ»: غَارَ ماؤُهَا فَدَخَلَ فِي أَعْمَاقِ الثَّرَابِ.

ومنه (ق/١٧٧) الوُقُبُ: لِلثُّقْبِ الَّذِي يَدْخُلُ فِيهِ الْمِحْوَرُ، وتقول العربُ: وَقَبَ يَقْبُ وَقُوبًا: إِذَا دَخَلَ.

فإن قيل: فما تقولون في القول الذي ذهب إليه بعضهم: أن

(١) الزيادة بين المعكوفات من (ق).

(٢) (ق) زيادة: «مظلمًا».

(٣) تقدم قريبًا.

الغاسق هو الثُّرَيَّا إذا سقطت، فإنَّ الأَسْقَامَ تكثرُ عند سقوطها وغروبها وترتفعُ عند طلوعها؟..

قيل: إنَّ أراد صاحبُ هذا القول اختصاصَ الغاسق بالنجم إذا غَرَبَ فباطلٌ، وإنَّ أراد أن اسم الغاسق يتناول ذلك بوجهٍ ما، فهذا يحتملُ أن يدلَّ اللفظُ عليه بفحواه ومقصوده وتنبهه، وأما أن يختصَّ اللفظُ به فباطلٌ.

فصل

والسبب الذي لأجله أمر الله بالاستعاذة من شر الليل، وشر القمر إذا وقب هو: أن الليل إذا أقبلَ فهو محلُّ سلطان الأرواح الشَّريَّة الخبيثة وفيه تنتشر الشياطين، وفي «الصحيح» أن النبي ﷺ أخبر أن الشمس إذا غربت انتشرت الشياطين ولهذا قال: «فَاكْفِتُوا صِبْيَانَكُمْ وَاحْسِبُوا مَوَاشِيَكُمْ حَتَّى تَذَهَبَ فَحَمَةُ الْعِشَاءِ»^(١).

وفي حديث آخر: «فَإِنَّ اللَّهَ يَبْثُ مِنْ خَلْقِهِ مَا يَشَاءُ»^(٢)، والليل هو محلُّ الظلام، وفيه تتسلطُ شياطينُ الإنس والجن ما لا تتسلطُ بالنهار، فإنَّ النهار نورٌ، والشياطين إنما سلطانهم في الظلمات والمواقع المظلمة والمظالم وعلى أهل الظلمة.

وروي أن سائلاً سأل مُسَيْلَمَةَ: كيف يأتيك الذي يأتيك؟ فقال: في

(١) أخرجه البخاري رقم (٣٢٨٠ و ٣٣١٦ وغيرها)، ومسلم رقم (٢٠١٢ و ٢٠١٣) من حديث جابر - رضي الله عنه - بنحوه.

وقوله في الحديث: «فاكفتوا» قال الحافظ: «بهمزة وصلٍ وكسر الفاء ويجوز ضمها، بعدها مثناة، أي: ضمُّوهم إليكم» اهـ من «فتح الباري»: (٤١٠/٦).

(٢) أخرجه أحمد: (١٨٨/٢٢ رقم ١٤٢٨٣)، وأبو داود رقم (٥١٠٤) وغيرهما من حديث جابرٍ أيضًا.

ظلماء حُنْدِس، وسأل النبي ﷺ: كيف يأتيك؟ فقال: «في مثل ضوءِ النَّهَارِ»^(١)، فاستدلَّ بهذا على (ظ/١٣٤) نُبوته، وأنَّ الذي يأتيه مَلَكٌ من عند الله، وأن الذي يأتي مُسَيَّلَمَةً شيطاناً، ولهذا كان سلطانُ السحرِ وعِظَم تأثيره إنما هو بالليلِ دون النهار، فالسَّحَرُ اللَّيْلِيُّ عندهم هو السَّحَرُ القويُّ التأثيرُ، ولهذا كانت القلوبُ المظلمةُ هي محالُّ الشياطينِ وبيوتهم ومأواهم، والشياطينُ تجولُ فيها وتتحكَّمُ كما يتحكَّمُ ساكنُ البيتِ فيه، وكلما كان القلبُ أظلمَ كان للشيطانِ أطوعَ، وهو فيه أثبتُّ وأمكنُ.

فصل

ومن ههنا تعلم السَّرُّ في الاستعاذة بربِّ الفلق في هذا الموضع، فإنَّ الفلقُ الصُّبْحُ الذي هو مبدأ ظهور النور، وهو الذي يطردُ جيشَ الظلامِ وعسكرَ المفسدين في الليل، فيأوي كلُّ خبيثٍ وكلُّ مفسِدٍ وكلُّ لصٍّ وكلُّ قاطع طريقٍ إلى سَرَبٍ أو كِنٍّ أو غارٍ، وتأوي الهوامُّ إلى جِحْرَتِهَا^(٢)، والشياطين التي انتشرت بالليل إلى أمكنتها ومحالها.

فأمر الله تعالى عباده أن يستعيدوا بربِّ النور الذي (ق/١٧٧) يقهرُ الظُّلْمَةَ ويُرِيْلُهَا ويقهرُ عسكرَها وجيشَها، ولهذا يخبر سبحانه في

(١) لم أجده، لكن أخرج أحمد: (٣١٢/١)، والطبراني بنحوه - كما في المجمع: ٢٥٨/٨ - عن ابن عباس، وابن سعد في «الطبقات»: (١/١٩٥) عن عروة مرسلًا بسندٍ صحيح في حديث بدء الوحي أن النبي ﷺ قال لخديجة: «إني أرى ضوءًا وأسمع صوتًا...».

قال الهيثمي عن سند أحمد: «ورجاله رجال الصحيح».

(٢) (ظ ود): «أجحرتها»، والمثبت من (ق) وهو جمع «جُحْر» ويجمع على: «جِحْرَة وأجحار» انظر «اللسان»: (٤/١١٧).

كلّ كتاب^(١) أنه يخرج عبادة من الظلمات إلى النور، ويدع الكفار في ظلمات كفرهم، قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَائُهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢] وقال في أعمال الكفار: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُمُ لَمْ يَكْدِرْ بِهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

وقد قال قبل ذلك في صفات أهل الإيمان ونورهم: ﴿اللَّهُ نُورٌ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكُوتٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥].

فالإيمان كلّه نور، ومآله إلى نور، ومستقرّه في القلب المضيء المستنير، والمقترن بأهله الأرواح المستنيرة المضيئة المشرقة، والكفر والشرك كله ظلمة، ومآله إلى الظلمات، ومستقره في القلوب المظلمة، والمقترن بها الأرواح المظلمة.

فتأمل الاستعاذة بربّ الفلق من شرّ الظلمة ومن شرّ ما يحدث فيها، ونزّل هذا المعنى على الواقع تشهد به: أن القرآن بل هاتان السورتان من أعظم أعلام النبوة وبراہین صدق رسالة محمد ﷺ ومضادّة ما جاء به الشياطين من كل وجه، وأن ما جاء به ما تنزلت به الشياطين، وما ينبغي لهم، وما يستطيعون، فما فعلوه، ولا يليق

(١) «في كل كتاب» ليست في (ق).

بهم، ولا يتأتى منهم، ولا يقدرُونَ عليه.

وفي هذا أُبينُ جوابَ وأشفاه لما يوردهُ أعداءُ الرسول عليه من الأسئلة الباطلة، التي قَصَرَ المُتَكَلِّمُونَ غايةَ التَّقْصِيرِ في دفعها، وما شَفَوْا في جوابها، وإنما اللهُ سبحانه هو الذي شَفَى وكفى في جوابها فلم يُحَوِّجْنَا إلى متكلمٍ ولا أصوليٍّ ولا نَظَّارٍ، فله الحمد والمنة لا نحصي ثناءً عليه.

فصل

واعلم أن الخَلْقَ كُلَّهُ فَلَاقَ، وذلك أن «فَلَاقًا» فَعَلَ بمعنى: مفعول، كَقَبْضٍ وَسَلْبٍ وَقَنْصٍ، بمعنى: مَقْبُوضٍ وَمُسْتَلَبٍ وَمُقْتَنَصٍ^(١)، والله عز وجل فالتق الإصباح، (ق/١١٧٨) وفالتق الحب والنوى، وفالتق الأرض عن النبات، والجبال عن العيون، والسحاب عن المطر، والأرحام عن الأجنَّة، والظلام عن الإصباح، ويسمى الصبحُ المتصدِّعُ عن الظلمة: فَلَاقًا وَفَرَقًا، يقال: (ظ/١٣٤ب) أُبينُ^(٢) من فَرَقِ الصُّبْحِ وَفَلَاقِهِ.

وكما أن في خَلْقِهِ فَلَاقًا وَفَرَقًا، فكذلك أمره كُلُّهُ فَرَاقًا، يفرِّقُ به بين الحقِّ والباطل، فيفرق ظلام الباطل بالحق، كما يفلق ظلام الليل بالإصباح، ولهذا سُمِيَ كتابه: «الفرقان»، ونصره: «فرقانًا»، لتضمُّنه الفرق بين أوليائه وأعدائه، ومنه فَلَاقَهُ البحرَ لموسى وسماه: فَلَاقًا وَفَرَقًا^(٣).

فظهرت حكمة الاستعاذة بربِّ الفلق في هذه المواضع، وظهر

(١) في «المنيرية»: «ومسلوب ومقنوص».

(٢) (ظ و د): «هو أبيض».

(٣) من (ق).

بهذا إعجازُ القرآن وعظُمته وجلالته، وأن العباد لا يقدرُون قدره،
وأنه: ﴿تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

فصل

الشرُّ الثالث: شرُّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ، وهذا الشرُّ هو شرُّ السحر،
فإن النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ هن: السواحرُ اللاتي يعقدن الخيوطَ، وينفثنَ
على كلِّ عقدة، حتى يعقدن ما يُردن من السحر، والنفث هو: النفخ
مع ريق، وهو دون التقل، وهو مرتبةٌ بينهما، والنفث: فعلُ الساحر،
فإذا تكيفت نفسه بالخيث والشر الذي يريده بالمسحور ويستعينُ عليه
بالأرواح الخبيثة نفخ^(١) في تلك العقدة نفخًا معه ريقٌ فيخرج من نفسه
الخيثة نفسٌ مَمازجٌ للشر والأذى، مقترنٌ بالريق الممازج لذلك، وقد
تسَاعَدَ هو والرُّوح الشيطانية على أذى المسحور، فيقع فيه السحرُ
بإذن الله الكونيِّ القَدري لا الأمريِّ الشرعي.

فإن قيل: فالسحرُ يكونُ من الذكور والإناث، فلمَ خصَّ الاستعاذةَ
من الإناث دونَ الذكور؟

قيل في جوابه: إن هذا خَرَجَ على السَّببِ الواقع، وهو أن بنات
لبيد بن أعصم سَحَرْنَ النَّبِيَّ ﷺ. هذا جوابُ أبي عبيدة وغيره^(٢)،
وليس هذا بسديد، فإن الذي سَحَرَ النَّبِيَّ ﷺ هو لبيدُ بنُ أعصم كما
جاء في «الصحيح».

والجوابُ المحقَّقُ: أنَّ النَّفَّاثَاتِ هُنَّ الأرواحُ والأنفس النَّفَّاثَاتِ
لا النساءُ النَّفَّاثَاتُ، لأن تأثير السحر إنما هو من جهة الأنفس الخبيثة

(١) (ظ و د): «نفث».

(٢) انظر: «زاد المسير»: (٢٧٥/٩)، و«فتح القدير»: (٥٢١/٥).

والأرواح الشريرة، وسلطانه إنما يظهر منها، فلهذا ذكرت التفتّات هنا بلفظ التأنيث دون التذكير، والله أعلم.

ففي «الصحیح»^(١) عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة: «أن النبي ﷺ طُبَّ، حتى إنه ليُخَيَّلُ إليه أنه صَنَعَ شيئاً وما صنعه، (ق/١٧٨ب) وأنه دعا ربّه، ثم قال: «أشعرت أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه»، فقالت عائشة: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «جاءني رجلان فجلس أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي، فقال أحدهما لصاحبه: ما وجع الرجل؟ قال الآخر: مطبوب، قال: من طبه؟ قال: لبيد بن الأعصم. قال له: فبماذا؟ قال: في مشطٍ ومشاطةٍ وجفّ طلعة ذكر، قال: فأين هو؟ قال: في ذروان بئر في بني زريق». قالت عائشة رضي الله عنها: فأتاها رسول الله ﷺ ثم رجع إلى عائشة رضي الله عنها فقال: «والله لكان ماءها نقاعة الحنأ، ولكأن نخلها رؤوس الشياطين»، قال: فقلت له: يا رسول الله هلا أخرجته؟ قال: «أما أنا فقد شفاني الله وكرهت أن أثير على الناس شراً» فأمر بها فدفت.

قال البخاري: وقال الليث وسفيان بن عيينه، عن هشام: في مشطٍ ومشاطة، ويقال: إن المشاطة ما يخرج من الشعر إذا مشط، والمشاقة من مشاقة الكتان.

قلت: هكذا في هذه الرواية إنه لم يُخرجه اكتفاء بمعافة الله له وشفائه إياه، وقد روى البخاري^(٢) من حديث سفيان بن عيينة قال:

(١) أخرجه البخاري رقم (٣٢٦٨ و ٥٧٦٣ وغيرها) ومسلم رقم (٢١٨٩) من حديث عائشة - رضي الله عنها -.

(٢) رقم (٥٧٦٥).

أول من حدثنا به ابنُ جُرَيْجٍ يقول: حدثني آلُ عُرْوَةَ، عن عُرْوَةَ فسألت هشامًا عنه، فحدثنا عن أبيه، عن عائشة: «كان رسول الله سُحِرَ حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهنَّ، قال سفيان: وهذا أشدُّ ما يكون من السَّحر إذا كان كذا، فقال: «يَا عَائِشَةُ أَعْلِمْتِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَفْتَانِي فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ، أَنَانِي (ظ/١١٣٥) رَجُلَانِ فَقَعَدَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي وَالْآخَرَ عِنْدَ رِجْلِي، فَقَالَ الَّذِي عِنْدَ رَأْسِي لِلْآخِرِ: مَا بَالُ الرَّجُلِ؟ قَالَ: مَطْبُوبٌ قَالَ: وَمَنْ طَبَّهُ؟ قَالَ: لِبَيْدِ بْنِ الْأَعْصَمِ رَجُلٌ مِنْ بَنِي زُرَيْقٍ حَلِيفٌ لِيَهُودَ وَكَانَ مُنَافِقًا، قَالَ: وَفِيمَ؟ قَالَ: فِي مُسْطِ وَمُسَاطِةٍ قَالَ: وَأَيْنَ؟ قَالَ: فِي جُفِّ طَلْعَةَ ذَكَرٍ تَحْتَ رَعُوفَةٍ فِي بَيْتِ دَرُوانَ»، قال: فأتى البئر حتى استخرجه، فقال: «هَذِهِ الْبَيْرُ الَّتِي أُرِيَتْهَا، وَكَانَ مَاءُهَا نُقَاعَةُ الْحِنَاءِ وَكَانَ نَحْلُهَا رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ، قَالَ: فَاسْتُخْرِجَ، قَالَتْ: فَقُلْتُ: أَفَلَا؟ أَيْ: تَنْشُرْتُ، فَقَالَ: أَمَّا اللَّهُ فَقَدْ شَفَانِي وَأَكْرَهُ أَنْ أُبَيِّرَ عَلَى أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ شَرًّا».

ففي هذا الحديث أنه استخرجه، وترجم البخاريُّ عليه: «بابٌ هل يُسْتُخْرِجُ السَّحْرُ؟».

وقال قتادة: قلت لسعيد بن المُسَيَّبِ: رجل به طِبٌّ ويؤخذ عن امرأته، أيجلُّ عنه وينشر؟ قال: لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح، فأما ما ينفَعُ النَّاسَ فلم (ق/١١٧٩) يُنْفَعُ عَنْهُ^(١).

فهذان الحديثانِ قد يُظَنُّ في الظاهر تعارضُهُما، فإن حديث

(١) علَّقه البخاري في «الصحیح - الفتح»: (٢٤٣/١٠) مجزومًا به، وقال الحافظ: «وصله أبو بكر الأثرم في «كتاب السنن، من طريق أبان العطار عن قتادة»، قال الحافظ في «تغليق التعليق»: (٤٩/٥): «وإسناده صحيح».

عيسى، عن هشام، عن أبيه الأول فيه أنه لم يستخرجه، وحديث ابن جريج، عن هشام فيه أنه استخرجه، ولا تنافي بينهما، فإنه استخرجه من البئر حتى رآه وعلمه، ثم دفنه بعد أن شفي.

وقول عائشة رضي الله عنها: هلا استخرجته؟ أي: هلاً أخرجته للناس حتى يرووه ويعاينوه، فأخبرها بالمانع له من ذلك، وهو أن المسلمين لم يكونوا ليسكتوا عن ذلك، فيقع الإنكار ويغضب الساحر قومه، فيحدث الشر، وقد حصل المقصود بالشفاء والمعافة فأمر بها فدفت، ولم يستخرجها للناس، فالاستخراج الواقع غير الذي سألت عنه عائشة، والذي يدل عليه أنه ﷺ إنما جاء إلى البئر ليستخرجها منه، ولم يجيء إليه لينظر إليها ثم ينصرف، إذ لا غرض له في ذلك، والله أعلم^(١).

وهذا الحديث ثابت عند أهل العلم بالحديث، متلقى بالقبول بينهم، لا يختلفون في صحته، وقد اعتاص على كثير من أهل الكلام وغيرهم، وأنكروه أشد الإنكار، وقابلوه بالتكذيب، وصنف بعضهم فيه مصنفًا مفردًا حمل فيه على هشام، وكان غاية ما أحسن القول فيه، أن قال: «غلط واشتبه عليه الأمر، ولم يكن من هذا شيء»، قال: «لأن النبي ﷺ لا يجوز أن يسحر فإن كونه مسحورًا تصديق لقول^(٢) الكفار: ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ٤٧] قالوا: وهذا كما قال فرعون لموسى - عليه السلام -: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَى مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١]. وقال قوم صالح له: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ

(١) انظر الجمع بين الروایتين في «شرح ابن بطال»: (٩/٤٤٤ - ٤٤٥)، و«فتح الباري»:
(١٠/٢٤٥ - ٢٤٦).

(٢) (ظ و د): «لأمر».

الْمُسْحَرِينَ ﴿١٥٢﴾ [الشعراء: ١٥٢]، وقال قوم شعيب له: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ﴾ ﴿١٨٥﴾، قالوا: فالأنبياء لا يجوزُ عليهم أن يُسْحَرُوا، فإن ذلك ينافي حماية الله لهم وعصمتهم من الشياطين».

وهذا الذي قاله هؤلاء مردودٌ عند أهل العلم، فإن هشامًا من أوثق النَّاسِ وأعلمهم، ولم يقدح فيه أحدٌ من الأئمة بما يوجب ردَّ حديثه، فما لِلْمُتَكَلِّمِينَ ولهذا الشأن؟! وقد رواه غيرُ هشام عن عائشة - رضي الله عنها -.

وقد اتفق أصحابُ «الصحاحين» على تصحيح هذا الحديث، ولم يتكلَّم فيه أحدٌ من أهل الحديث بكلمة واحدة، والقصة مشهورةٌ عند أهل التفسير والسنن والحديث والتاريخ والفقهاء، وهؤلاء أعلمُ بأحوال رسول الله ﷺ وأيامه من المتكلمين.

قال أبو بكر بن أبي شَيْبَةَ^(١): «حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن يزيد بن حَيَّان، عن زَيْدِ بْنِ الأَرْقَمِ، قال: سحر النبي ﷺ رجلٌ من اليهود، فاشتكى لذلك أيامًا، قال: فأتاه جبريلُ، فقال: إن رجلاً من اليهود سَحَرَكَ، وعقد لذلك^(٢) عُقْدًا، فأرسل رسول الله ﷺ عَلِيًّا فاستخرجها، فجاء بها، فجعل كلما حلَّ عقدةً وجد لذلك خِصَّةً، فقام رسول الله ﷺ كأنما أُنْشِطَ من عِقَالٍ، فما ذكر ذلك لليهودي ولا رآه في وجهه قطُّ»^(٣).

(١) في «المصنَّف»: (٤٠/٥ - ٤١).

(٢) (ق و د): «لك».

(٣) وأخرجه أحمد في «مسنده»: (٣٦٧/٤)، والنسائي: (١١٢/٧)، وعَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ «المنتخب» رقم (٢٧١)، والطبراني في «الكبير»: (١٨٠/٥) كلهم من طريق أبي معاوية به.

وقال ابن عباس وعائشة: كان غلامٌ من اليهود يخدمُ رسول الله ﷺ فذنت إليه اليهود، فلم يزالوا حتى أخذ مُشَاطَةَ رأس النبي ﷺ، وعِدَّةَ أسنان من مُشْطه، فأعطاهم اليهود فسحروه فيها، وتولى ذلك لبيد بن الأعصم رجلٌ من اليهود فتزلت هاتان السورتان فيه^(١).

قال البغوي^(٢): وقيل: كانت مغروزةً بالإبرة، فأنزل الله عز وجل هاتين السورتين وهما إحدى عشرة آية: سورة الفلق خمس آيات وسورة الناس ست آيات، فكلما قرأ آية انحلت عقدة، حتى انحلت العُقْدُ كُلُّهَا، فقام النبي ﷺ كأنما أنشَطَ من عِقَالٍ^(٣).

قال: وروي أنه لَبِثَ فيه ستة أشهر واشتد عليه ثلاثة أيام،

-
- = ورواه الحاكم: (٣٦٠/٤) من حديث زيد بإسنادٍ آخر وصححه على شرط الشيخين، وانظر: «الفتح»: (٢٣٩/١٠)، وقال الهيثمي في «المجمع»: (٢٨٤/٦): «رواه الطبراني بأسانيد، ورجال أحدهما رجال الصحيح».
- (١) ذكره البغوي في «تفسيره»: (٥٤٦/٤) بلا إسناد، أخذًا من الثعلبي؛ إذ تفسيره مختصر منه، وعزاه للثعلبي ابن كثير في «تفسيره»: (٣٩١١ - ٣٩١٠/٨) مطوَّلًا، وقال عقبه: «هكذا أورده بلا إسناد، وفيه غرابة، وفي بعضه نكارة شديدة، ولبعضه شواهد مما تقدم» اهـ.
- (٢) في «تفسيره»: (٥٤٦/٤ - ٥٤٧).
- (٣) قال الحافظ في «الفتح»: (٢٣٦/١٠): «وقد وقع في حديث ابن عباس فيما أخرجه البيهقي في «الدلائل» بسندٍ ضعيف في آخر قصة السحر الذي سُحِرَ به النبي ﷺ أنهم وجدوا وترًا فيه إحدى عشرة عقدة وأنزلت سورة الفلق والناس، وجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة، وأخرج ابن سعد (الطبقات ٢/١٩٩) بسندٍ آخر منقطع عن ابن عباس: أن عليًا وعمارًا لما بعثهما النبي ﷺ لاستخراج السحر وجدا طلعةً فيها إحدى عشرة عقدة» اهـ. وانظر: «التلخيص الحبير»: (٤٠/٤).
- وكذا جاء ذكر هذه العقد في رواية عمرة عن عائشة، لكنها أيضًا ضعيفة انظر «الفتح»: (٢٤١/١٠، ٢٤٦).

فنزلت المعوذتان^(١).

قالوا: والسحر الذي أصابه ﷺ كان مرضاً من الأمراض عارضاً شفاه الله منه، ولا نقص في ذلك ولا عيب بوجه ما، فإن المرض يجوزُ على الأنبياء، وكذلك الإغماء فقد أُغمِيَ عليه ﷺ في مرضه^(٢)، ووقع حين انفكت قدمه^(٣)، وجحش شفه^(٤)، وهذا من البلاء الذي يزيده الله به رفعةً في درجاته ونيل كرامته، وأشدُّ الناس بلاءً الأنبياءُ، فابتلوا من أمهم بما ابتلوا به من القتل والضرب والشم والحبس، فليس يبذع أن يُبتلى النبي ﷺ من بعض أعدائه بنوع من السحر كما ابتلي بالذي رماه فشجّه، وابتلي بالذي ألقى على ظهره السلى وهو ساجد، وغير ذلك، فلا نقص عليهم ولا عار في ذلك، بل هذا من كمالهم وعلو درجاتهم عند الله.

(ق/١١٨٠) قالوا: وقد ثبت في «الصحيح» عن أبي سعيد الخدري أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال: «يَا مُحَمَّدُ اشْتَكَيْتَ؟» فقال: «نَعَمْ»، فقال: «بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنٍ حَاسِدٍ، اللَّهُ يَشْفِيكَ، بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ»^(٥) فعوذه جبريلُ من شرِّ

(١) قال الحافظ في «الفتح»: (٢٣٧/١٠): «وقع في رواية أبي ضمرة عند الإسماعيلي: «فأقام أربعين ليلة» وفي رواية وهيب (كذا! وصوابه: معمر، أما رواية وهيب ٩٦/٦ فليس فيها تحديد المدة) عن هشام عند أحمد (٦٣/٦): «سنة أشهر»، ويمكن الجمع بأن تكون السنة أشهر من ابتداء تغير مزاجه، والأربعين يوماً من استحكامه...» اهـ.

(٢) أخرجه البخاري رقم (١٩٨)، ومسلم رقم (٤١٨) من حديث عائشة - رضي الله عنها -.

(٣) أخرجه البخاري رقم (١٩١١) من حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه -.

(٤) أخرجه البخاري رقم (٣٧٨)، ومسلم رقم (٤١١) من حديث أنس - أيضاً -.

(٥) أخرجه مسلم رقم (٢١٨٦) من حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه -.

كل نفس وعين حاسد لَمَّا اشتكى، فدلَّ على أن هذا التعويد مُزِيلٌ
لشكَايته ﷺ، وإلا فلا يُعوذُه من شيء وشكَايته من غيره.

قالوا: وأما الآيات التي استدلتتم بها فلا حجة لكم فيها، أما قوله
تعالى عن الكفار أنهم قالوا: ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الإسراء: ٤٧]
وقول قوم صالح له: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣] ف قيل:
المراد به من له سَحَرٌ، وهي الرِّثَّةُ، أي: أنه بَشَرٌ مثلهم يأكلُ ويشربُ،
ليس بِمَلَكٍ، ليس المرادُ به السَّحَرُ، وهذا جواب غير مَرْضِيٍّ، وهو
في غاية البعد فإن الكفار لم يكونوا يعبرون عن البشر بأنه مسحور،
ولا يُعرف هذا في لغة من اللغات^(١)، وحيث أرادوا هذا المعنى أتوا
بصريح لفظ البشر فقالوا: ﴿مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾، ﴿أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ
مِثْلِنَا﴾، ﴿أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾.

وأما المسحور، فلم يريدوا به: ذا السَّحَر وهي: الرِّثَّة، وأيُّ
مناسبة لذكر الرِّثَّة في هذا الموضع؟! ثم كيف يقول فرعون لموسى:
﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَى مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١] أفترَاه ما علم أن له
سَحَرًا وأنه بشرٌ، ثم كيف يجيبه موسى بقوله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَنْفِرَعَوْتُ
مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢] ولو أراد بالمسحور أنه بشر لصدقه موسى
وقال: نعم أنا بشرٌ أرسلني اللهُ إليك، كما قالت الرسلُ لقومهم لما
قالوا لهم: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ فقالوا: ﴿إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾
ولم يُنكروا ذلك، فهذا الجوابُ في غاية الضَّعف.

وأجابت طائفةٌ منهم ابنُ جرير^(٢) وغيره، بأن المسحور هنا هو

(١) (ق): «من لغات الأمم».

(٢) كما في «تفسيره»: (١٥٨/٨) قال: «وقد يجوز أن يكون مرادًا به: إني لأظنك =

مُعَلِّمُ السِّحْرِ الذي قد عَلَّمَهُ إِيَّاهُ غَيْرُهُ، فالمسحور عنده بمعنى ساحر أي: عَلِمَ السحر^(١)، وهذا جيّد إن ساعدت عليه اللغة، وهو: أن من عَلِمَ السحر، يقال له: مسحور، (ظ/١٣٦) ولا يكاد هذا يُعرف في الاستعمال، ولا في اللغة، وإنما المسحور من سحره غيرُه كالمطبوب والمضروب والمقتول وبابه، وأما من عَلِمَ السحر فإنما^(٢) يقال له: ساحر، بمعنى: أنه عالمٌ بالسحر، وإن لم يَسْحَرْ غيره، كما قال قوم فرعون لموسى: ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء: ٣٤] ففرعون قذفه بكونه مسحورًا، وقومه قذفوه بكونه ساحرًا.

فالصَّواب هو الجوابُ الثالث، وهو جواب صاحب «الكشاف»^(٣) وغيره: (ق/١٨٠ب) أن المسحور على بابه، وهو مَنْ سُحِرَ حَتَّى جُنَّ، فقالوا: مسحورٌ، مثل مجنون زائل العقل لا يعقل ما يقول، فإنَّ المسحورَ الذي لا يُتَّبَعُ: هو الذي قد فسد عقله بحيث لا يدري ما يقولُ فهو كالمجنون، ولهذا قالوا فيه: ﴿مُعَلِّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ [١٤] فأما من أُصِيبَ في بَدَنِهِ بمرضٍ من الأمراض يُصَابُ به الناسُ فإنه لا يمنع ذلك من اتباعه، وأعداء الرسل لم يقذفوهم بأمراض الأبدان، وإنما قذفوهم بما يحذرون به سفهاءهم من اتِّبَاعِهِمْ، وهو أنهم قد سُحِرُوا حَتَّى صاروا لا يعلمونَ ما يقولون بمنزلة المجانين، ولهذا قال تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٨]

= يا موسى ساحرًا، فوضع مفعول موضع فاعل، كما قيل: إنك مشثوم علينا وميمون، وإنما هو شائم ويامن... والعرب قد تخرج فاعلاً بلفظ مفعول كثيرًا اهـ.

(١) في «المنبرية»: «عالم بالسحر».

(٢) (ظ): «فإنه».

(٣) (٢/٣٧٧).

مثلوك بالشاعر مرة، والساحر أخرى، والمجنون مرة، والمسحور أخرى، فضلوا في جميع ذلك ضلالاً من يطلب في تيهه وتحيره^(١) طريقاً يسلكه فلا يقدر عليه، فإنه أي طريق أخذها فهي طريق ضلال وحيرة، فهو متحير في أمره لا يهتدي سبيلاً، ولا يقدر على سلوكها، فهذا^(٢) حال أعداء رسول الله ﷺ معه حتى ضربوا له أمثالاً برأه الله منها، وهو أبعد خلق الله منها، وقد علم كل عاقل أنها كذبٌ وافتراءٌ وبهتانٌ.

وأما قولكم: «إن الأنبياء يُنافي حماية الله لهم وصيانتهم لهم [أن يُسحروا]»، فجوابه: أن ما يصيبهم من أذى أعدائهم لهم، وأذاهم إياهم لا ينافي حماية الله وصيانتهم لهم^(٣)؛ فإنه سبحانه كما يحميهم ويصونهم ويحفظهم ويتولاهم فيبتليهم بما شاء من أذى الكفار لهم ليستوجبوا كمال كرامته، وليتسلى بهم من بعدهم من أممهم وخلفائهم إذا أوذوا من الناس، فرأوا ما جرى على الرُّسل والأنبياء، صبروا ورضوا وتأسوا بهم، ولتمتلىء صاعُ الكفار فيستوجبون ما أُعدَّ لهم من النكال العاجل والعقوبة الآجلة، فيمحقهم بسبب بغيهم وعداوتهم^(٤)، فيعجل تطهير الأرض منهم، فهذا من بعض حكيمته تعالى في ابتلاء أنبيائه ورسله بأذى قومهم، وله الحكمة البالغة والنعمة السابغة، لا إله غيره، ولا ربَّ سواه.

فصل

وقد دلَّ قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴾،

(١) (ق): «في تيهٍ وغيره».

(٢) (ظ): «فكهذا».

(٣) ما بين المعكوفين ساقط من (ظ ود) والمطبوعات، ومستدرک من (ق).

(٤) (ق): «وعداوتهم».

وحديث عائشة - رضي الله عنها - المذكور على تأثير السحر وأن له حقيقة، وقد أنكر ذلك طائفة من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم، وقالوا: (ق/١١٨١) إنه لا تأثير للسحر البتة لا في مرض ولا قتل ولا حل ولا عقد، قالوا: وإنما ذلك تخيل لأعين الناظرين، لا حقيقة له سوى ذلك.

وهذا خلاف ما تواترت به الآثار^(١) عن الصحابة والسلف، واتفق عليه الفقهاء وأهل التفسير والحديث، وأرباب القلوب من أهل التصوف، وما يعرفه عامة العقلاء.

والسحر الذي يؤثر مرضاً وثقلاً، وحلاً وعقداً، وحباً وبغضاً ونزيفاً، وغير ذلك من الآثار موجودٌ تعرفه عامة الناس، وكثير منهم قد علمه ذوقاً بما أصيب به منه.

وقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ سَكْرٍ أَنْفَقْتُمْ فِي الْعُقَدِ ﴾ دليل على أن هذا النفث يضرُّ المسحور في حال غيبته عنه، ولو كان الضرر لا يحصل إلا بمباشرة البدن ظاهراً - كما يقوله هؤلاء - لم يكن للنفث ولا للنفثات شرٌّ يستعاذ منه.

وأيضاً: فإذا جاز على الساحر أن يسحر جميع أعين الناظرين - مع كثرتهم - حتى يروا الشيء بخلاف ما هو به - مع أن هذا تغيير في إحساسهم^(٢) - فما الذي يحيل تأثيره في تغيير بعض أعراضهم وقواهم وطباعهم؟! وما الفرق بين التغيير الواقع في الرؤية والتغيير (ظ/١٣٦ب) في صفة أخرى من صفات النفس والبدن؟!.

(١) (ق): «الأخبار».

(٢) (ق): «أجسامهم».

فإذا غَيَّرَ إحساسه حتى صار يرى السَّاكِنَ مُتَحَرِّكًا، والمُتَّصِلَ منفصلاً، والميِّتَ حيًّا، فما المُحِيلُ لأن يغيِّرَ صفات نفسه حتى يجعلَ المحبوبَ إليه بغيضًا والبغيضَ محبوبًا وغير ذلك من التأثيرات؟ .

وقد قال تعالى عن سحرة فرعون إنهم: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَأَسْرَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦] فبيَّن سبحانه أن أعينهم سُحِرَتْ، وذلك إما أن يكونَ لتغيير حصل في المرئي، وهو الحبال والعصي، مثل أن يكون السَّحْرَةُ استعانت بأرواح حَرَكَتْهَا، وهي الشياطينُ، فظنُّوا أنها تحرَّكت بأنفسها، وهذا كما إذا جرَّ من لا تراه حصيرًا أو بساطًا فترى الحصير والبساط ينجرُّ، ولا ترى الجارَّ له، مع أنه هو الذي يجرُّه، فهكذا حال الحبال والعصي التبتتها الشياطينُ فقلَّبتها كتقلُّب الحيَّة فظنَّ الرائي أنها تقلَّبت بأنفسها، والشياطينُ هم الذين يقلُّبونها. وإما أن يكونَ التغيُّرُ حَدَثَ في الرائي حتى رأى الحبال والعصي تتحرَّك وهي ساكنة في أنفسها، ولا ريب أن الساحر يفعلُ هذا وهذا، فتارة يتصرَّف في نفس الرائي وإحساسه (ق/١٨١ب) حتى يُريه الشيءَ بخلاف ما هو به، وتارة يتصرَّف في المرئي باستعانته بالأرواح الشيطانية حتى يتصرَّف فيها^(١).

وأما ما يقوله المنكرون من أنهم فعلوا في الحبال والعصي ما أوجب حركتها ومشيتها مثل الزئبق وغيره حتى سَعَتْ، فهذا باطلٌ من وجوه كثيرة، فإنه لو كان كذلك لم يكن هذا خيالاً بل حركة حقيقية، ولم يكن ذلك سَحْرًا لأعين النَّاسِ، ولا يسمَّى ذلك سَحْرًا، بل صناعة من الصناعات المشتركة، وقد قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ

(١) (ق): «يؤثر فيه».

وَعَصِيهِمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴿٦٦﴾ [طه: ٦٦] ولو كانت تحركت بنوع حيلة - كما يقول المنكرون - لم يكن هذا من السحر في شيء، ومثل هذا لا يخفى، وأيضاً: لو كان ذلك بحيلة - كما قال هؤلاء - لكان طريق إبطالها إخراج ما فيها من الزئبق وبيان ذلك المحال، ولم يحتج إلى إلقاء العصا لابتلاعها، وأيضاً: فمثل هذه الحيلة لا يحتاج فيها إلى الاستعانة بالسحرة، بل يكفي فيها حُذَاق الصُّنَّاع، ولا يحتاج في ذلك إلى تعظيم فرعون للسحرة وخضوعه لهم ووعدهم بالتقريب والأجر^(١)، وأيضاً: فإنه لا يقال في ذلك: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾، فإن الصناعات يشترك الناس في تعلُّمها وتعليمها، وبالجملة فبطلانُ هذا أظهرُ من أن يتكلف رده، فلنرجع إلى المقصود.

فصل

الشرُّ الرابع: شرُّ الحاسد إذا حسد، وقد دلَّ القرآنُ والسُّنَّةُ على أن نفسَ حسد الحاسد يؤذي المحسود، فنفس حسده شرٌّ يتَّصِلُ بالمحسود من نفسه وعينه، وإن لم يؤذِهِ بيده ولا لسانه، فإن الله تعالى قال: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾، فحقَّق الشرَّ منه عند صدور الحسد.

والقرآنُ ليس فيه لفظة مهمة، ومعلوم أن الحاسد لا يسمَّى حاسداً إلا إذا قام به الحسد، كالضارب والشاتم والقاتل ونحو ذلك، ولكن قد يكون الرَّجُلُ في طبيعته الحسد، وهو غافل عن المحسود لاهٍ عنه، فإذا خطر على ذكره وقلبه انبعث نارُ الحسد من قلبه إليه، ووجهت إليه سهام الحسد من قلبه^(٢)، فيتأذى المحسودُ بمجرد

(١) (ظ و د): «والإجزاء».

(٢) (ظ): «قلبه» ولها وجه.

ذلك، فإن لم يستعد بالله ويتحصن به، ويكون له أوراؤ من الأذكار والدَّعوات والتَّوَجُّه إلى الله والإقبال عليه، بحيث يدفع عنه من شره بمقدار توجهه وإقباله على الله، وإلا ناله شر الحاسد ولا بد، فقولته تعالى: ﴿ إِذَا حَسَدَ ﴾ (ق/١١٨٢) بيان؛ لأن شره إنما يتحقَّق إذا حصل منه الحسد بالفعل.

وقد تقدم في حديث أبي سعيد الخُدْرِيّ الصحيح رُفِيَهُ جبريل - عليه السلام - النَّبِيُّ (ظ/١١٣٧) ﷺ وفيها: «بسم الله أَرْزِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنٍ حَاسِدٍ، اللهُ يَشْفِيكَ»^(١)، فهذا فيه الاستعاذة من شر عين الحاسد، ومعلوم أن عينه لا تؤثر بمجردا؛ إذ لو نظر إليه نظر لاهٍ ساهٍ عنه، كما ينظر إلى الأرض والجبل وغيره لم يؤثر فيه شيئا، وإنما إذا نظر إليه نظر من قد تكيفت نفسه الخبيثة، وانسمت واحتدّت، فصارت نفسا غصبيّة خبيثة حاسدة أثرت بها^(٢) تلك النظرة، فأثرت في المحسود تأثيرا بحسب صفة ضعفه وقوّة نفس الحاسد، فربما أعطبه وأهلكه، بمنزلة من فوق سهمًا نحو رجلٍ عُرِيَانٍ فأصاب منه مقتلاً، وربما صرعه وأمراضه، والتَّجَارِبُ عند الخاصّة والعامّة بهذا أكثر من أن تُذَكَرَ.

وهذا العينُ إنما تأثيرها بواسطة النفس الخبيثة، وهي في ذلك بمنزلة الحية التي إنما يؤثر سمها إذا غضبت^(٣) واحتدّت، فإنها تتكيف بكيفية الغضب والخبث فتحدث فيها تلك الكيفية السّم فتؤثر في الملسوع، وربما قويت تلك الكيفية واشتدّت في نوع منها حتى

(١) تقدم ص/٧٤٢.

(٢) (ق): «فاقتربت بها».

(٣) (ظ و د) والمطبوعات: «عصت»، وما في (ق) أصح معني.

تُوَثِّرُ بِمَجْرَدِ نَظَرَةٍ فَتَطْمَسُ الْبَصَرَ وَتَسْقُطُ الْحَبْلَ، كَمَا ذَكَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْأَبْتَرِ وَذِي الطُّفَيْتَيْنِ مِنْهَا، وَقَالَ: «أَقْتُلُوهُمَا، فَإِنَّهُمَا يَطْمَسَانِ»^(١) الْبَصَرَ وَيُسْقِطَانِ الْحَبْلَ»^(٢).

فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي الْحَيَاتِ، فَمَا الظَّنُّ فِي النُّفُوسِ الشَّرِيرَةِ الْغَضَبِيَّةِ الْحَاسِدَةِ إِذَا تَكَيَّفَتْ بِكَيْفِيَّتِهَا الْغَضَبِيَّةِ وَانْسَمَّتْ وَتَوَجَّهَتْ إِلَى الْمَحْسُودِ بِكَيْفِيَّتِهَا؟! فَلِلَّهِ كَمٌ مِنْ قَتِيلٍ، وَكَمٌ مِنْ سَلِيبٍ، وَكَمٌ مِنْ مَعَافِيٍّ عَادَ مَضَى عَلَى فِرَاشِهِ يَقُولُ طَبِيبُهُ: لَا أَعْلَمُ دَاءَهُ مَا هُوَ = فَصَدَقَ!! لَيْسَ هَذَا الدَّاءُ مِنْ عِلْمِ الطَّبَائِعِ، هَذَا مِنْ عِلْمِ الْأَرْوَاحِ وَصِفَاتِهَا وَكَيْفِيَّاتِهَا وَمَعْرِفَةِ تَأْثِيرَاتِهَا فِي الْأَجْسَامِ وَالطَّبَائِعِ وَانْفِعَالِ الْأَجْسَامِ عَنْهَا.

وَهَذَا عِلْمٌ لَا يَعْرِفُهُ إِلَّا خَوَاصُّ النَّاسِ، وَالْمَحْجُوبُونَ مُنْكَرُونَ لَهُ، وَلَا يَعْلَمُ تَأْثِيرَ ذَلِكَ وَارْتِبَاظَهُ بِالطَّبِيعَةِ وَانْفِعَالِهَا عَنْهُ إِلَّا مَنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْ ذَوْقِ، وَهَلِ الْأَجْسَامُ إِلَّا كَالْخَشَبِ الْمَلْقَى؟ وَهَلِ الْانْفِعَالُ وَالتَّأَثُّرُ وَحُدُوثُ مَا يَحْدُثُ عَنْهَا مِنْ الْأَفْعَالِ الْعَجِيبَةِ وَالْآثَارِ الْغَرِيبَةِ إِلَّا لِلْأَرْوَاحِ، وَالْأَجْسَامُ (ق/١٨٢ب) أَلْتَهَا، بِمَنْزِلَةِ آلَةِ الصَّانِعِ، فَالصَّنْعَةُ فِي الْحَقِيقَةِ لَهُ، وَالْآلَاتُ وَسَائِطُ فِي وَصُولِ أَثَرِهِ إِلَى الصَّنْعِ.

وَمَنْ لَهُ أَدْنَى فِطْنَةٍ، وَتَأَمَّلْ أَحْوَالَ الْعَالَمِ وَلَطَّفَتْ رُوحَهُ، وَشَاهَدَتْ أَحْوَالَ الْأَرْوَاحِ وَتَأْثِيرَاتِهَا، وَتَحْرِيكِهَا الْأَجْسَامَ وَانْفِعَالِهَا عَنْهَا، كُلُّ ذَلِكَ بِتَقْدِيرِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ، خَالِقِ الْأَسْبَابِ وَالْمَسَبِبَاتِ = رَأَى^(٣)

(١) (ظ): «يلتمسان» وهو موافق لرواية مسلم: «يلتمس البصر».

(٢) أخرجه البخاري رقم (٣٢٩٧)، ومسلم رقم (٢٢٣٣) من حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - بنحوه، وفي «الصحيحين»: «يستسقطان الحبل».

وذو الطُفَيْتَيْنِ وَالْأَبْتَرِ: جِنْسٌ مِنَ الْحَيَاتِ الْخَبِيثَةِ.

(٣) متعلق بقوله: «ومن له أدنى فطنة...».

عجائب في الكون، وآيات دالة على وحدانية الله وعظمته وربوبيته، وأنَّ ثمَّ عالمًا آخرَ تجري عليه أحكامُ آخرُ تُشهدُ آثارها، وأسبابها غُيِّبَ عن الأبصار، فتبارك الله ربُّ العالمين وأحسنُ الخالقين الذي أتقنَ ما صنع، وأحسنَ كلَّ شيءٍ خلقه!! ولا نسبة لعالم الأجسام إلى عالم الأرواح، بل هو أعظمُ وأوسعُ وعجائبه أبهرُ وآياته أعجبُ!!.

وتأمل هذا الهيكلَ الإنسانيَّ إذا فارقتهُ الرُّوحُ كيف يصيرُ بمنزلة الخَشَبَةِ أو القطعة اللحم، فأين ذهبت تلك العلوم^(١) والمعارف والعقل، وتلك الصنائعُ الغريبة وتلك الأفعالُ العجيبة وتلك الأفكار والتدبيرات؟ كيف ذهبت كلُّها مع الرُّوح وبقي الهيكل سواء هو والتراب؟ وهل يخاطبُك من الإنسان أو يراك أو يحبك، أو يوالياك ويعاديك، ويخفُّ عليك ويثقلُ، ويؤنسُك ويوحسُك، إلا ذلك الأمرُ الذي وراء الهيكل المشاهدِ بالبصر.

فربَّ رجلٍ عظيم الهَيُولَى^(٢) كبير الجثة، خفيفٌ على قلبك حُلُوٌّ عندك، وآخرٌ لطيفُ الخِلْقَةِ صغير الجثة، أثقلُ على قلبك من جبل، (ظ/١٣٧ب) وما ذاك إلا للطافة رُوح ذاك وخِفَّتِها وحلاوتها، وكثافة هذا وغلظ روحه ومرارتها، وبالجملة فالعُلُقُ والوُصَلُ التي بين الأشخاص والمنافرات والبُعد إنما هي للأرواح أصلاً، والأشباح تبعاً.

فصل

والعائنُ والحاسد يشتركان في شيء، ويفترقان في شيء، فيشتركانِ

(١) (ق) زيادة: «والأرواح».

(٢) الهَيُولَى، لفظ يوناني، بمعنى الأصل والمادة، انظر: «التوقيف على مهمات التعاريف»: (ص/٧٤٥).

في أن كل واحدٍ منهما تتكيف نفسه وتتوجه نحو من يريد أذاه،
فالعائنُ تتكيف^(١) نفسه عند مقابلة المعين ومعاينته. والحاسد يحصل
له ذلك عند غيبة المحسود وحضوره أيضاً.

ويفترقان في أن العائن قد يُصيب من لا يحسده من جماد أو
حيوان أو زرع أو مال، وإن كان لا يكاد يُنفك من حسد صاحبه.
وربما أصابت عينه نفسه، فإن رؤيته للشيء رؤية تعجب وتحديق، مع
تكيف نفسه بتلك الكيفية تؤثر في المعين^(٢).

وقد قال غير واحد من (ق/١١٨٣) المفسرين^(٣) في قوله تعالى:
﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾ [القلم: ٥١]: إنه الإصابة
بالعين، فأرادوا أن يُصيبوا بها رسول الله ﷺ، فنظر إليه قوم من
العائنين وقالوا: ما رأينا مثله ولا مثل حجته^(٤). وكان طائفة منهم
تمرُّ بهم الناقة والبقرة السمينة فيعينها، ثم يقول لخدمته: خذ المِكتل
والدرهم وأتنا بشيء من لحمها، فما تبرح حتى تقع فتشحر.

وقال الكلبي^(٥): كان رجلٌ من العرب يمكث يومين أو ثلاثة لا
يأكل، ثم يرفع جانب حبابه فتمرُّ به الإبل فيقول: لم أرَ كالיום إبلاً
ولا غنماً أحسن من هذه، فما تذهب إلا قليلاً حتى يسقط منها
طائفة، فسأل الكفار هذا الرجل أن يُصيب رسول الله ﷺ بالعين
ويفعل به كفعله في غيره، فعصم الله تعالى رسوله وحفظه، وأنزل

(١) هذه وما قبلها في (ق): «تتكيف».

(٢) وانظر: «زاد المعاد»: (٤/١٦٤ - فما بعدها).

(٣) انظر «تفسير الطبري»: (١٢/٢٠٣ - ٢٠٤) عن ابن عباس وغيره.

(٤) (ق): «حججه» وكذا في «تفسير البغوي».

(٥) نقله عنه البغوي في «تفسيره»: (٤/٣٨٤).

عليه: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيَرْفُقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ﴾ [القلم: ٥١] هذا قول طائفة.

وقالت طائفة أخرى - منهم ابن قتيبة^(١) -: ليس المراد أنهم يُصِيبُونَكَ بالعين كما يُصِيبُ العَائِنُ بعينه ما يعجبه، وإنما أراد أنهم ينظرون إليك إذا قرأت القرآن الكريم نظراً شديداً بالعداوة والبغضاء يكاد يسقطك.

قال الرَّجَّاجُ^(٢): يعني من شدة العداوة يكادون بنظرهم نظراً البغضاء أن يصرعوك، وهذا مستعمل في الكلام، يقول القائل: نظري نظرة قد كان يصرعني منها.

قال: ويدل على صحة هذا المعنى أنه قرن هذا النظر بسماع القرآن الكريم، وهم كانوا يكرهون ذلك أشد الكراهة، فيحدون إليه النظر بالبغضاء.

قلت: النظر الذي يؤثر في المنظور قد يكون سببه شدة العداوة والحسد، فيؤثر نظره فيه كما تؤثر نفسه بالحسد، ويقوى تأثير النفس عند المقابلة، فإن العدو إذا غاب عن عدوه قد تشتغل نفسه عنه، فإذا عاينه قبلاً اجتمعت الهمة عليه، وتوجهت النفس بكليتها إليه، فيتأثر بنظره، حتى إن من الناس من يسقط، ومنهم من يحم، ومنهم من يحمل إلى بيته، وقد شاهدت الناس من ذلك كثيراً.

وقد يكون سببه الإعجاب، وهو الذي يسمونه بإصابة العين، وهو أن الناظر يرى الشيء رؤية إعجاب به أو استعظام، فتكيف

(١) في «تأويل مشكل القرآن»: (ص/١٧٠)، والمؤلف ينقل من «تفسير البغوي»:
(٣٨٤/٤).

(٢) نقله في «اللسان»: (١٤٥/١٠).

رُوحُهُ بِكَيْفِيَّةٍ خَاصَّةٍ تَوَثَّرُ فِي الْمَعِينِ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي يَعْرِفُهُ النَّاسُ مِنْ رُؤْيَةِ الْمَعِينِ، فَإِنَّهُمْ يَسْتَحْسِنُونَ الشَّيْءَ، وَيَعْجَبُونَ مِنْهُ فَيَصَابُ بِذَلِكَ.

قال (ق/١٨٣ب) عبدالرزاق: حدثنا معمر، عن هشام بن مثنبه (١) قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «العين حق» ونهى عن الوشم (٢).

وروى سفيان، عن عمرو بن دينار، عن عروة بن عامر، عن عبيد بن رفاعه، أن أسماء بنت عميس قالت: يا رسول الله إن بني جعفر تصيبهم العين، أفنسترقى لهم؟ قال: «نعم، فلو كان شيء يسبق القضاء لسبقته العين» (٣).

فالكفار كانوا ينظرون إليه نظر حاسد شديد العداوة، فهو نظراً يكاد يُزلقه لولا حفظ الله وعصمته، فهذا أشد من نظر العائن، بل هو جنس من نظر العائن، فمن قال: إنه من الإصابة بالعين، أراد هذا المعنى، ومن قال: ليس به (٤)، أراد أن نظرهم لم يكن نظراً استحساناً وإعجاباً، فالقولان (٥) حق.

(١) تحرفت في (ظ ود) والمطبوعات إلى: «هشام بن قتيبة»!
(٢) أخرجه هشام في «صحيفته» رقم (١٣١)، وعبدالرزاق في «المصنف»: (١٨/١١)، والبخاري رقم (٥٧٤٠)، ومسلم رقم (٢١٨٧).
(٣) أخرجه أحمد: (٤٣٨/٦)، والترمذي رقم (٢٠٥٩)، وابن ماجه رقم (٣٥١٠)، والنسائي في «الكبرى»: (٣٦٥/٤) وغيرهم من حديث أسماء بنت عميس - رضي الله عنها -.

قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح»، وله شواهد.

(٤) (ق): «منهم»، و(ظ ود): «فيه» والمثبت أصح.

(٥) (ظ و د) والمطبوعات: «فالقرآن» والتصويب من (ق).

وقد روى الترمذي من حديث أبي سعيد: «أن النبي ﷺ كان يتعوذ من عين الإنسان»^(١) فلولا أن للعين شراً لم يتعوذ منها.

وفي الترمذي من حديث علي بن المبارك، عن يحيى بن أبي كثير، حدثني حية بن حابس^(٢) التميمي، حدثني أبي أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا شيء في الهام، والعين حق»^(٣).

وفيه أيضاً: من حديث وهيب، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كان شيء سابق القدر لسبقته العين، وإذا استغسلتم فاغسلوا»^(٤)، قال: وفي الباب عن عبدالله بن عمرو، وهذا حديث صحيح^(٥).

والمقصود أن العائن حاسد خاص، وهو أضر من الحاسد، ولهذا - والله أعلم - إنما جاء في السورة ذكر الحاسد دون العائن؛

(١) أخرجه الترمذي رقم (٢٠٥٨)، والنسائي: (٢٧١/٨) وفي «الكبرى»: (٤/٤٤١)، وابن ماجه رقم (٣٥١١)، والضياء في «المختارة».

قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب»، وصححه الضياء.

(٢) تحرفت في (ق) إلى: «جبير بن حابس» و(ظ ود): «حابس بن حبة! والتصويب من المصادر، واختلف في ضبط «حية» فقبل بالياء - آخر الحروف - وقيل بالموحدة ذكره ابن أبي عاصم، وخطؤه فيه وصوبوا الأول انظر «توضيح المشتبه»: (٧٨/٣)، و«الإصابة»: (٢/٢٠١).

(٣) أخرجه أحمد: (١٨١/٢٧) رقم (١٦٦٢٧)، والترمذي رقم (٢٠٦١)، والبخاري في «الأدب المفرد»: (ص/٢٦٩) وغيرهم.

قال الترمذي: «حديث غريب» يُشير بذلك إلى ضعفه، لكن للحديث شواهد صحيحة يتقوى بها من حديث جماعة من الصحابة - رضي الله عنهم -.

(٤) أخرجه مسلم رقم (٢١٨٨)، والترمذي رقم (٢٠٦٢).

(٥) هذا كلام الترمذي عقب الحديث المتقدم، وحديث ابن عمرو أخرجه أحمد: (١١/٦٤١) رقم (٧٠٧٠) وفي سنده ضعف.

لأنه أعمُّ، فكلُّ عائنٍ حاسدٍ ولا بُدَّ، وليس كلُّ حاسدٍ عائنًا، فإذا استعاذ من شرِّ الحسد دخل فيه العين، وهذا من شمول القرآن الكريم وإعجازه وبلاغته.

وأصل الحَسَدِ هو بُغْضُ نعمةِ الله على المحسود وتميُّ زوالها، فالحاسدُ عدوُّ النعم، وهذا الشرُّ هو من نفس الحاسد وطبعها، ليس هو شيئًا اكتسبته من غيرها، بل هو من حُبثها وشرِّها، بخلاف السحر، فإنه إنما يكونُ باكتساب أمورٍ أخرى، واستعانة بالأرواح الشَّيطانية، فلهذا - والله أعلم - قرَن في السُّورة بين شرِّ الحاسد وشرِّ الساحر؛ لأن الاستعاذة من شرِّ هذين تَعْمُ كُلَّ شرِّ يأتي من شياطين الإنس والجن، فالحَسَدُ من شياطين الإنس والجن، والسحرُ من النوعين.

وبقي قِسْمٌ ينفردُ به شياطينُ الجن، وهو الوسوسةُ في القلب، فذكره في السورة الأخرى (ق/١٨٤) كما سيأتي الكلام عليها إن شاء الله تعالى، فالحاسدُ والساحرُ يؤذيان المحسودَ والمسحورَ بلا عملٍ منه، بل هو أذى من أمرٍ خارجٍ عنه، ففرَّق بينهما في الذكر في سورة الفلق.

والوسواسُ إنما يؤذي العبدَ من داخلٍ بواسطة مساكنته له، وقبوله منه، ولهذا يعاقبُ العبدُ على الشر الذي يؤذيه به الشيطان من الوسواس التي^(١) تقترونُ بها الأفعالَ والعزمَ الجازمَ؛ لأن ذلك سعيه وإرادته، بخلاف شرِّ الحاسد والساحر فإنه لا يُعاقبُ عليه؛ إذ لا يضافُ إلى كسبه ولا إرادته، فلهذا أفرد شرَّ الشيطان في سورة، وقرن

(١) (ق): «الوسواس الذي».

بين شرِّ الساحر والحاسد في سورة، وكثيرًا ما يجتمعُ الشران شر الحسد والسحر في النفوس الخبيثة^(١) للمناسبة.

ولهذا اليهودُ أسحرُ الناس وأحسدُهُم، فإنهم لشدَّة حُبِّهِم فيهم من السَّحر والحسد ما ليس في غيرهم، وقد وصفهم الله تعالى في كتابه بهذا وهذا، فقال تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيْطَانَ كَفُرًا وَعِلْمُونَ النَّاسِ السَّحَرِ وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ هُنُوتَ وَمُرُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَرَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلَّمُوا لِمَنْ أُشْرِبَهُ مَا لَمْ يَكُنْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلِيَسَّ مَا شَكَّرُوا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وللكلام على أسرار هذه الآية وأحكامها، وما تضمنته من القواعد، والردِّ على من أنكر السحر، وما تضمنته من الفرقان بين السحر وبين المعجزات، الذي (ظ/١٣٨ب) أنكر من أنكر السحر خشية الالتباس، وقد تضمنت الآية أعظم الفرقان بينهما = موضع غير هذا؛ إذ المقصودُ الكلامُ على أسرار هاتين السورتين، وشدَّة حاجة الخلق إليهما، وأنه لا يقوم غيرهما مقامهما.

وأما وصفهم^(٢) بالحسد؛ فكثير في القرآن، كقوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٥٤] وفي قوله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ

(١) (ظ و د): «وكثيرًا ما يجتمع القرآن الحسد والسحر للمناسبة!» والمثبت من (ق).

(٢) أي اليهود.

أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ ﴿البقرة: ١٠٩﴾.

والشيطان يقارنُ الساحرَ والحاسدَ ويحادثهما ويصاحبهما، ولكنَّ الحاسدَ تُعِينُهُ الشياطينُ بلا استدعاء منه للشيطان؛ لأنَّ الحاسدَ شبيهٌ بإبليسَ وهو في الحقيقة من أتباعه؛ لأنه يطلبُ ما يحبه الشيطان من فساد الناس وزوال نعم (ق/١٨٤) الله عنهم، كما أن إبليسَ حسد آدم شرفه وفضله، وأبى أن يسجدَ له حَسَدًا، فالحاسدُ من جند إبليس، وأما الساحرُ فهو يطلبُ من الشيطان أن يُعِينَهُ ويستعينه^(١)، وربما يعبدُهُ من دون الله تعالى حتى يقضيَ له حاجتَهُ، وربما يسجدَ له.

وفي كتب السحر و«السِّرِّ المكتوم»^(٢) من هذا عجائب، ولهذا كلما كان الساحرُ أكْفَرَ وأخبثَ وأشدَّ معاداةً لله ولرسوله ولعباده المؤمنين؛ كان سحره أقوى وأنفَذَ، ولهذا كان سحرُ عبَاد الأصنام أقوى من سحر أهل الكتاب، وسحر اليهود أقوى من سحر المُنتَسِبِينَ إلى الإسلام، وهم الذين سحروا رسول الله ﷺ.

وفي «الموطأ»^(٣) عن كعب قال: «كلماتٌ أحفظهنَّ من التَّوراة لولاها لجعلتني يهودُ حماراً: أعودُ بوجه الله العظيم الذي لا شيء أعظمُ منه، وبكلماتِ الله التَّامَّاتِ التي لا يُجاوِزُهُنَّ برٌّ ولا فاجرٌ،

(١) (ق): «ويستعين به».

(٢) «السِّرِّ المكتوم في مخاطبة النجوم» لأبي بكر الرازي المتكلم (٦٠٦)، والكتاب في عبادة الكواكب والأصنام وعمل السحر، وقيل: إنه منسوب إليه. انظر: «مجموع الفتاوى»: (١٣/١٨٠)، و«بيان تليس الجهمية»: (١/٤٤٧)، و«كشف الظنون»: (ص/٩٨٩)، و«طبقات الشافعية الكبرى»: (٨/٨٧).

(٣) (٢/٩٥١-٩٥٢).

وبأسماء الله الحُسنى، ما عَلِمْتُ منها وما لم أَعْلَمْ، مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ
وَذَرَأً وَبَرًّا».

والمقصودُ أَنَّ السَّاحِرَ والحاسدَ كلَّ منهما قصده الشَّرُّ، لكن
الحاسدَ بطبعه ونفسيه وبغضه للمحسود، والشيطان يقترنُ به ويُعينه
ويزيِّنُ له حَسَدَهُ ويأمره بموجبه، والساحرُ بعلمه^(١) وكسبه وشركه
واستعانته بالشياطين.

فصل

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ ﴿٦﴾ يَعْمُ الحاسدُ من
الجنِّ والإنس، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ وحزبهُ يحسدون المؤمنين على ما آتاهم
الله تعالى من فضله، كما حسد إبليس أبانا آدم وهو عدو لذريته، كما
قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦].

ولكنَّ الوسواس أخصُّ بشياطين الجن، والحسدُ أخصُّ بشياطين
الإنس، والوسواس يعمُّهما كما سيأتي بيانهما، والحسدُ يعمُّهما
أيضًا، فكلا الشيطانين حاسدٌ مَوْسُوسٌ، فالاستعاذةُ من شَرِّ الحاسدِ
تتناولُهما جميعًا.

فقد اشتملت السورةُ على الاستعاذة من كلِّ شَرِّ في العالم،
وتضمَّنت شرورًا أربعة يستعاذُ منها: شرًّا عامًّا وهو شَرُّ ما خَلَقَ، وشَرُّ
الغاسق إذا وقب، فهذان نوعان.

ثم ذكر شَرِّ الساحر والحاسد، وهما نوعان أيضًا؛ لأنهما من شَرِّ
النفس الشريرة، وأحدهما يستعينُ بالشيطان ويعبده وهو السَّاحِرُ،

(١) (ق): «بعمله».

وقلما يتأتى السحرُ بدون نوع^(١) عبادة للشيطان، وتقرَّب إليه؛ إما بذبح باسمه، أو بذبح يُفصدُّ به هو، فيكون ذبحًا لغير الله، وبغير ذلك من أنواع الشرك والفسوق.

والساحرُ وإن لم يُسمَّ هذا عبادة للشيطان فهو عبادة^(ق/١١٨٥) له، وإن سمَّاه بما سمَّاه به، فإن الشرك والكفر هو شركٌ وكفرٌ لحقيقته ومعناه لا لاسمه ولفظه، فمن سجد لمخلوق وقال: ليس هذا بسجود له هذا خضوعٌ وتقبيل الأرض بالجبهة كما أُقبلها بالتَّعم، أو هذا إكرامٌ، لم يخرج بهذه الألفاظ عن كونه سجودًا لغير الله فليُسمَّه بما شاء.

وكذلك من ذبح للشيطان ودعاه، واستعاذ^(٢) به وتقرَّب إليه بما (ظ/١١٣٩) يحبُّ فقد عبده، وإن لم يُسمَّ ذلك عبادةً بل يُسمَّيه استخدامًا ما، وصدق هو استخدام^(٣) من الشيطان له، فيصيرُ من خدَم الشيطان وعابديه، وبذلك يخدمه الشيطان، لكن خدمة الشيطان له ليست خدمة عبادة، فإن الشيطان لا يخضع له ويعبده كما يفعل هو به.

والمقصودُ أن هذا عبادة منه للشيطان وإن سمَّاه استخدامًا، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتَذَكَّرُونَ آيَاتِنَا وَيُنصِتُونَ لِكَلِمَاتِنَا وَلَمْ يُكْفَرُوا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [يس: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرَهُمْ مُّؤْمِنُونَ ﴿٢﴾﴾ [سبا: ٤٠ - ٤١].

فهؤلاء وأشباههم عبَاد الجنِّ والشياطين، وهم أولياؤهم في الدنيا

(١) (ق): «نوع» وهو خطأ.

(٢) (ق): «واستعان».

(٣) «ما، وصدق هو استخدام» سقطت من (ق).

والآخرة، ولبئس المولى ولبئس العشير، فهذا أحد النوعين .

والنوع الثاني: من يُعِينُهُ الشيطانُ وإن لم يستعن به، وهو الحاسد؛ لأنه نائبُهُ وخليفَتُهُ؛ لأنَّ كِلَيْهِمَا عَدُوٌّ نَعِمَ اللهُ تعالى، ومنغصُّها^(١) على عباده .

فصل

وتأمل تقييده - سبحانه - شرَّ الحاسد بقوله: ﴿ إِذَا حَسَدَكَ ﴾؛ لأن الرجل قد يكون عنده حَسَدٌ ولكن يُخفيه ولا يترتب عليه أذى^(٢) بوجه ما، لا بقلبه ولا بلسانه ولا بيده، بل يجد في قلبه شيئاً من ذلك، ولا يعامل^(٣) أخاه إلا بما يُحبُّ اللهُ، فهذا لا يكاد يخلو منه أحدٌ، إلا مَنْ عصمه اللهُ .

وقيل للحسن البصري: أيحسدُ المؤمن؟ قال: ما أنساكَ إخوةَ يوسف^(٤). لكن الفرق بين القوة التي في قلبه من ذلك وهو لا يطيعها ولا ياتمر لها، بل يعصها طاعةً لله وخوفاً وحياءً منه وإجلالاً له أن يكرهَ نِعَمَهُ على عباده، فيرى ذلك مخالفةً لله وبغضاً لما يُحبُّ اللهُ ومحبةً لما يبغضه، فهو يجاهدُ نفسه على دفع ذلك، ويُلزِمها بالدُّعاء للمحسود، وتمني زيادة الخير له، بخلاف ما إذا حقق ذلك وحسد، ورتب على حسده مقتضاه من الأذى بالقلب واللسان والجوارح، فهذا الحسدُ المذمومُ، هذا كلُّه حسد (ق/١٨٥ب) تمني الزوال .

(١) (د): «ومبغضها» .

(٢) (ق): «ولا يترتب عليه أذى أخيه...» .

(٣) (ظ و د): «يعاجل» .

(٤) أخرجه هناد بن السري في «الزهد»: (٢/٦٤٢) .

وللحسد ثلاث مراتب:

إحداها: هذه.

الثانية: تمّني استصحاب عدم النعمة، فهو يكره أن يحدث الله لعبده نعمة، بل يحب أن يبقى على حاله؛ من جهله أو فقره أو ضعفه أو شتات قلبه عن الله أو قلة دينه، فهو يتمنى دوام ما هو فيه من نقص وعيب، فهذا حسدٌ على شيء مقدر، والأول حسدٌ على شيء محقق، وكلاهما حاسدٌ عدوٌ نعمة الله وعدوٌ عباده، وممقوتٌ عند الله تعالى وعند الناس، ولا يسودُ أبدًا ولا يرأس، فإن الناس لا يسودون عليهم إلا من يريدُ الإحسانَ إليهم.

فأما عدو نعمة الله عليهم فلا يسودونهم باختيارهم أبدًا إلا قهراً، يعدّونه من البلاء والمصائب التي ابتلاهم الله بها، فهم يُبغضونه وهو يُبغضهم.

والحسد الثالث: حسد الغبطة، وهو تمّني أن يكون له مثل حال المحسود من غير أن تزول النعمة عنه، فهذا لا بأس به ولا يُعابُ صاحبه، بل هذا قريبٌ من المنافسة، وقد قال تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلَيْتَافِسِ الْمُنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجلٌ آتاه الله مالاً وسلطه على هلكته في الحق، ورجلٌ آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها، ويعلمها الناس»^(١)، فهذا حسد غبطة، الحامل لصاحبه عليه كبر نفسه، وحبُّ خصال الخير، والتشبه بأهلها، والدخول في

(١) أخرجه البخاري رقم (٧٣)، ومسلم رقم (٨١٦) من حديث ابن مسعود - رضي الله عنه - .

جملتهم، وأن يكونَ من سُبَّاقِهِمْ وَعَلِيَّهِمْ وَمُصَلِّيهِمْ لا من فَسَاكِهِمْ^(١)، فتحدث له من هذه الهمة المنافسة والمسابقة والمسارة مع محبته لمن يغبطه، وتمني دوام نعمة الله عليه، فهذا (ظ/١٣٩ب) لا يدخل في الآية بوجهٍ ما.

فهذه السورة من أكبر أدوية المحسود، فإنها تتضمنُ التَّوَكَّلَ على الله والالتجاء إليه والاستعاذة به من شرِّ حاسد النعمة، فهو مستعيذٌ بوليِّ النعم وموليتها [من شرِّ لِيَصِّها وعدوها]^(٢) كأنه يقول: يا من أولاني نعمته وأسداها إليّ، أنا عائدٌ بك من شرِّ من يريد أن يستلبها مني، ويُرِيها عني [فلا يعيذني منه سواك، فهو مستجير بمن أنعم عليه من عدوِّ نعمته، والله تعالى يُجِير ولا يجار عليه]^(٣) وهو حسبُ من تَوَكَّلَ عليه، وكافي من لجأ إليه، وهو الذي يؤمِّنُ خوفَ الخائف، ويجيرُ المستجير، وهو نِعَمَ المولى ونعم النصير، فمن تولاه واستنصر به وتوكل عليه وانقطع بكليته إليه = تولاه وحفظه وحرسه وصانه، ومن خافه وأتقاه آمنه من كل ما^(٤) يخاف ويحذر، وجلب إليه كل ما يحتاج إليه من المنافع: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ ﴿ق/١١٨٦﴾ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ - ٣] فلا تستبطيء نصره ورزقه وعافيته، فإن الله تعالى بالغ أمره، وقد جعل الله لكل شيء قدرًا لا يتقدّم عنه ولا يتأخّر، ومن لم يخفه أخافه من كل شيء، وما خاف أحدٌ غيرَ الله إلا

(١) المُصَلِّي ما يسبق من الفرس، وتأتي بعد المجلي، أما الفساكل فجمع فُسْكُل، وهو: ما يجيء آخر الحلبة من الخيل. انظر: «القاموس»: (ص/١٦٨١، ١٣٤٦).

(٢) من (ق).

(٣) الزيادة من (ق).

(٤) (ظ و د): «مما».

لنقص خوفه من الله، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ [النحل: ٩٨ - ١٠٠]، وقال: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥] أي: يخوفكم بأوليائه، ويعظمهم في صدوركم، فلا تخافوهم، وأفردوني بالمخافة أكفكم إياهم.

فصل (١)

ويندفع شرُّ الحاسد عن المحسود بعشرة أسباب:

أحدها: التَّعَوُّذُ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنْ شَرِّهِ، وَالتَّحَصُّنُ بِهِ، وَاللَّجَأُ إِلَيْهِ، وَهُوَ الْمَقْصُودُ بِهَذِهِ السُّورَةِ، وَاللَّهُ تَعَالَى سَمِيعٌ لاسْتِعَاذَتِهِ^(٢)، عَلِيمٌ بِمَا يَسْتَعِيدُ مِنْهُ، وَالسَّمْعُ هُنَا الْمَرَادُ بِهِ سَمْعٌ^(٣) الْإِجَابَةُ لَا السَّمْعَ الْعَامَّ، فَهُوَ مِثْلُ قَوْلِهِ: «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ». وَقَوْلُ الْخَلِيلِ ﷺ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاةِ﴾. وَمَرَّةٌ يَقْرُنُهُ بِالْعَلْمِ، وَمَرَّةٌ بِالْبَصْرِ، لِاقْتِضَاءِ حَالِ الْمُسْتَعِيدِ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ يَسْتَعِيدُ بِرَبِّهِ^(٤) مِنْ عَدُوٍّ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَرَاهُ، وَيَعْلَمُ كَيْدَهُ وَشَرَّهُ، فَأَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى هَذَا الْمُسْتَعِيدَ أَنَّهُ سَمِيعٌ لاسْتِعَاذَتِهِ، أَي: مُجِيبٌ عَلِيمٌ بِكَيْدِ عَدُوِّهِ يَرَاهُ وَيُبْصِرُهُ لِيَنْسَطَ أَمْلُ الْمُسْتَعِيدِ وَيُقْبَلَ قَلْبُهُ^(٥) عَلَى الدُّعَاءِ.

(١) من هنا يبدأ الجزء الموجود من النسخة العمرية وكتب عليه: «الجزء الثاني من بدائع الفوائد» ورمزنا له بـ«ع». وفي أوله: «بسم الله الرحمن الرحيم، وبه الإعانة». وكتب في هامش (ظ) في هذا الموضع: «أول الجزء الثاني من البدائع».

(٢) ليست في (ق).

(٣) ليست في (ع)، و(ظ ود): «سموع».

(٤) (ظ و د): «به».

(٥) (ق): «بقلبه».

وتأملُ حكمة القرآن الكريم كيف جاء في الاستعاذة من الشيطان الذي نعلمُ وجوده ولا نراه بلفظ: (السميع العليم) في (الأعراف) و(حم السجدة)، وجاءت الاستعاذة من شرِّ الإنس الذين يؤنسون ويُرُونَ بالأبصار بلفظ: (السميع البصير) في سورة (حم المؤمن) فقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ يَخْتَرِ سُلْطَانٍ آتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَلِّغِيهِ فَاَسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ هُمُ السَّكِينُ الْبَصِيرُ ۝٥٦﴾ [غافر: ٥٦]؛ لأن أفعال هؤلاء أفعال مُعَايَنَةٍ تُرَى بالبصر.

وأما نَزْعُ الشَّيْطَانِ؛ فوساوسٌ وخطراتٌ يُلقِيها في القلب، يتعلَّقُ بها العلم، فأمر بالاستعاذة بالسميع العليم فيها، وأمر بالاستعاذة بالسميع البصير في باب ما يُرى بالبصر ويُدرِك بالرُّؤْيَا، والله أعلم.

السبب الثاني: تقوى الله وحفظه عند أمره ونهيه، فمن اتقى الله تولى الله حفظه، (ق/١٨٦ب) ولم يَكُلْهُ إِلَى غَيْرِهِ^(١)، قال تعالى: ﴿ وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ۗ ﴾ [آل عمران: ١٢٠] وقال النبي ﷺ لعبدالله بن عباس: «أَحْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظَكَ أَحْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تَجَاهَكَ»^(٢)، فمن حفظ الله حفظه الله ووجده أمامه أينما توجه، ومن

(١) في هامش (ق) حاشية بخط العلامة ابن علان الصديقي نُصِّها: «لكاتبه الفقير

الحقير محمد علي ابن علان البكري الصديقي الشافعي: . . .

اتق الله لا تخف من فلانٍ ما فلانٌ - مع التَّمْيِ - بفلانٍ

وأذِرْ أَنْ الْمَقْضِيَّ حَتْمٌ وَمَا لِمِ يَقْضِيهِ اللَّهُ لَا يَكُنْ بِزَمَانٍ

(٢) أخرجه الترمذي رقم (٢٥١٦)، وأحمد: (٤/٤١٠ رقم ٢٦٦٩) وغيرهم من

طرق كثيرة عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال الترمذي: «حديث حسن

صحيح». وقال الحافظ ابن رجب في «نور الاقتباس»: (ص/٣١): «وأجود

أسانيده من رواية حَسَنٍ عن ابن عباس، وهو إسناد حسن لا بأس به» اهـ.

ونحوه في «جامع العلوم والحكم»: (١/٤٦٠ - ٤٦١).

كان الله حافظه وأمامه فممن يخاف ومن يحذر؟.

السبب الثالث: الصبر على عدوه، وأن لا يقابله ولا يشكوه، ولا يحدث نفسه بأذاه أصلاً، فما نصير (ظ/١٤٠أ) على حاسده وعدوه بمثل الصبر عليه والتوكل على الله، ولا يستطل تأخيرته وبغيته، فإنه كلما بغى عليه كان بغيته جنداً وقوة للمبغى عليه^(١) المحسود، يقاتل به الباغي نفسه وهو لا يشعر، فبغية سهام يرميها من نفسه إلى نفسه، ولو رأى المبغى عليه ذلك لسره بغيته عليه، ولكن لضعف بصيرته لا يرى إلا صورة البغي دون آخره وماله، وقد قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرْنَهُ اللَّهُ﴾ [الحج: ٦٠] فإذا كان الله قد ضمن له النصر مع أنه قد استوفى حقه أولاً، فكيف بمن لم يستوف شيئاً من حقه؟ بل بغي عليه وهو صابر! وما من الذنوب ذنب أسرع عقوبة من البغي وقطيعة الرحم، وقد سبقت سنة الله: أنه لو بغى جبل على جبل جعل الباغي منهما دكاً^(٢).

السبب الرابع: التوكل على الله: ﴿مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، والتوكل من^(٣) أقوى الأسباب التي يدفع بها العبد ما لا يطيق من أذى الخلق وظلمهم وعدوانهم، وهو من^(٤) أقوى الأسباب في ذلك، فإن الله حسبه، أي: كافيته، ومن كان الله كافيته وواقية، فلا

(١) ليست في (ع).

(٢) في هامش (ق) ما نصه: «كما قال:

فلو بغى جبل يوماً على جبل لاندك منه أعاليه وأسفله» اهـ

أقول: انظر البيت في «الإيضاح لعلوم البلاغة»: (ص/٣٨٧) للقزويني.

(٣) من الآية إلى هنا ليست في (ق)، وبدلاً منها: «وهو».

(٤) ليست في (ع).

مطمع فيه لعدوه^(١)، ولا يضره إلا أذى لا بد منه؛ كالحر والبرد والجوع والعطش، وأما أن يضره بما يبلغ منه مراده؛ فلا يكون أبداً، وفرق بين الأذى الذي هو في الظاهر إيذاءً له وهو في الحقيقة إحسان إليه وإضرار بنفسه، وبين الضرر الذي يتشفي به منه.

قال بعض السلف: جعل الله - تعالى - لكل عمل جزاءً من جنسه^(٢)، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده، فقال: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾، ولم يقل: نُؤْتِهِ كَذَا وكَذَا من الأجر، كما قال في الأعمال، بل جعل نفسه سبحانه كافي عبده المتوكل عليه وحسبه وواقيه، فلو توكل العبد على الله تعالى حق توكله، وكادته السموات والأرض ومن فيهن، لجعل له مخرجاً من ذلك، وكفاه ونصره^(٣).

وقد ذكرنا حقيقة التوكل وفوائده وعظم (ق/١١٨٧) منفعته وشدة حاجة العبد إليه في كتاب: «الفتح القدسي»، وذكرنا هناك فساد من جعله من المقامات المعلولة، وأنه من مقامات العوام، وأبطلنا قوله من وجوه كثيرة، وبيننا أنه من أجل^(٤) مقامات العارفين، وأنه كلما علا مقام العبد كانت حاجته إلى التوكل أعظم وأشد، وأنه على قدر إيمان العبد يكون توكله، وإنما المقصود هنا ذكر الأسباب التي يندفع بها شر الحاسد والعائن، والساحر والباغي.

السبب الخامس: فراغ القلب من الاشتغال به والفكر فيه، وأن

(١) (ق) زيادة: «أبداً».

(٢) (ظ و د): «نفسه».

(٣) انظر: «مدارج السالكين»: (٢/١٣٣).

(٤) من قوله: «فساد من...» إلى هنا ساقط من (ظ و د).

يقصد أن يمحوه^(١) من باله كلما خطر [له]^(٢) فلا يلتفت إليه ولا يخافه ولا يملأ قلبه بالفكر فيه، وهذا من أنفع الأدوية، وأقوى الأسباب المعينة على اندفاع شره، فإن هذا بمنزلة من يطلبه عدوه ليُمسكه ويؤذيه، فإذا لم يتعرض له ولا تماسك هو وإياه، بل انعزل عنه لم يقدر عليه، فإذا تماسكا وتعلق كلُّ منهما بصاحبه حصل الشرُّ.

وهكذا الأرواحُ سواءً، فإذا علق روحه به وشبَّها به، وروح الحاسد الباغي متعلِّقٌ به يقظةً ومنامًا لا يفتُر عنه، وهو يتمنى أن يتماسك الرُّوحان ويتشبَّتا، فإذا تعلقت كلُّ روح منهما بالأخرى عديم القرار ودام الشرُّ حتى يهلك أحدهما.

فإذا جَبَدَ روحه عنه، وصانها عن الفكر فيه والتعلُّق به، وأن يُخطِرَه بباله، فإذا خطر بباله بادر إلى محو ذلك الخاطر، والاشتغال بما هو أنفع له وأولى به، بقي الحاسد الباغي يأكلُ بعضه بعضًا، فإن الحسد كالنار، فإذا لم تجد ما تأكله أكل^(٣) بعضها بعضًا.

وهذا باب عظيم النفع، لا يلقاه إلا أصحابُ النفوس الشريفة والهمم العليَّة، وبين الكيس الفطن وبينه حتى يذوق حلاوته وطيبه ونعيمه، كأنه^(٤) يرى من أعظم عذاب القلب والرُّوح اشتغاله بعدوه وتعلق روحه به، ولا يرى شيئًا ألمَ لروحه من ذلك، ولا يصدِّق بهذا إلا النفوسُ المطمئنة الوادعة اللينة^(٥) التي رضيت بوكالة الله لها،

(١) (ع): «محوه».

(٢) (ظ و د): «إليه»، وسقطت من (ق و ع).

(٣) (ق و ظ و د): «أكلت».

(٤) (ع): «فإنه».

(٥) «الوادعة اللينة» ليست في (ع).

وعلمتُ أن نصره لها خيرٌ من انتصارها هي لنفسها، فوثقتُ (ظ/١٤٠ب) بالله وسكنتُ إليه واطمأنتُ به، وعلمتُ أن ضمانه حقٌ ووعده صدقٌ، وأنه لا أوفى بعهده من الله، ولا أصدق منه قِيلاً، فعلمتُ أن نصره لها أقوى وأثبتُ وأدومُ وأعظمُ فائدةً من نصرها هي لنفسها، أو نصرِ مخلوقٍ مثلها لها، ولا يقوى (ق/١٨٧ب) على هذا إلا بـ:

السبب السادس: وهو الإقبالُ على الله والإخلاصُ له وجعلُ محبته وتَرْضِيهِ والإِنابةَ إليه في محلِّ خواطر نفسه وأمانيتها، تدبُّ فيها ديبب تلك الخواطر شيئاً فشيئاً حتى يقهرها ويغمرها ويُذهبها بالكلية، فتبقى خواطره وهواجسه وأمانيتهُ كلها في محابِّ الرّبِّ والتقربِ إليه، وتملّقه وتَرْضِيهِ واستعطافه وذكره، كما يذكر المحبُّ التَّامُّ المحبة^(١) لمحبوبه المحسن إليه الذي قد امتلأتْ جوانحه من حبه، فلا يستطيعُ قلبه انصرافاً عن ذكره، ولا روحه انصرافاً عن محبته، فإذا صار كذلك فكيف يرضى لنفسه أن يجعل بيتَ أفكاره وقلبه معموراً بالفكر في حاسده والباغي عليه، والطريقِ إلى الانتقام منه والتدبير عليه؟ هذا ما لا يتسعُ له إلا قلبٌ خرابٌ لم تسكنْ فيه محبةُ الله وإجلاله وطلبُ مرضاته؛ بل إذا مسّه طيفٌ من ذلك واجتاز ببابه^(٢) من خارج ناداه حرس قلبه: إِيَّاكَ وَحِمَى الْمَلِكِ، اذهب إلى بيوت الخانات التي كل من جاء حلَّ فيها ونزل بها، مالكٌ وليت السلطان الذي أقام عليه اليَزَكِ^(٣) وأدار عليه الحرس وأحاطه بالسور.

(١) «التام المحبة» ليست في (ظ ود).

(٢) (ق): «بذاته».

(٣) كلمة فارسية، معناها: طليعة الجيش. انظر: «معجم المصطلحات والألقاب التاريخية»: (ص/٤٤٦).

قال تعالى حكاية عن عدوه إبليس أنه قال: ﴿فِعِزَّنِكَ لِأَعْوِيَتَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٨٢ - ٨٣]، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [النحل: ٩٩ - ١٠٠]، وقال في حق الصديق يوسف عليه السلام: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلِصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: ٢٤].

فما أعظم سعادة مَنْ دخل هذا الحِصْنَ وصار داخل اليرك، لقد أوى إلى حصن لا خوف على مَنْ تحصن به، ولا ضيعة على من أوى إليه، ولا مطمع للعدو في الدنو منه^(١) و ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾ [الجمعة: ٤].

السبب السابع: تجريد التوبة إلى الله من الذنوب التي سلطت عليه أعداءه، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال لخير الخلق - وهم أصحاب نبيه - عليه السلام: ﴿أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلِهَا قُلْتُمْ أِنَّا هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥] فما سلط على (ق/١٨٨) العبد مَنْ يؤذيه إلا بذنب يعلمه أو لا يعلمه، وما لا يعلمه العبد من ذنوبه أضعاف ما يعلمه منها، وما ينساه مما عمله وعلمه أضعاف ما يذكره.

وفي الدعاء المشهور: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَمُ»^(٢)، فما يحتاج العبد إلى الاستغفار منه

(١) (ظ و د): «إليه».

(٢) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد»: (ص/٢١٤)، وأبو يعلى: (١/٦٠ - ٦١)، =

مما لا يعلمه أضعافُ أضعافٍ ما يعلمُهُ، فما سلَّطَ عليه مُؤذٍ إلا بذنبٍ .

ولقي بعضَ السَّلفِ رجلٌ فأغلظَ له ونال منه، فقال له: قِفْ حتى أدخلَ البيتَ ثم أخرجَ إليك، فدخلَ فسجدَ لله وتضرَّعَ إليه، وتابَ وأنابَ إلى ربِّه، ثم خرجَ إليه فقال له: ما صنعتَ؟ فقال: تبتُّ إلى الله من الذنبِ الذي سلَّطَكَ به عَلَيَّ .

وسنذكر إن شاء الله تعالى أنه ليس في الوجود شرٌّ إلا الذنوبُ ومُوجباتُها، فإذا عُوِيَ من الذنوبِ عُوِيَ من مُوجباتها، فليس للعبد إذا بُغِيَ عليه وأُوذِيَ، وتسَلَّطَ عليه خصومُهُ شيءٌ أنفعَ له من التوبةِ النصوحِ، وعلامةُ سعادته: أن يعكسَ فكره ونظره على نفسه وذنوبه وعيوبه، فيشتغلَ بها وبإصلاحها وبالتوبة منها، فلا يبقى فيه فراغٌ لتدبُّر ما نزل به، بل يتولَّى هو التوبة وإصلاح عيوبه، والله يتولَّى نُصْرَتَهُ وحفظه والدفعَ عنه ولا بُدَّ، فما أسعده من عبدٍ، وما أبركها من نازلة نزلتْ به، وما أحسنَ أثرها عليه (ظ/١٤١)!! ولكن التوفيق والرشد بيد الله لا مانعَ لما أعطى ولا مُعطيَ لما مَنَعَ، فما كلُّ أحدٍ يُوفِّقُ لهذا، لا معرفةً به، ولا إرادةً له، ولا قُدْرَةً عليه، ولا حولَ ولا قوَّةً إلا بالله .

السبب الثامن: الصدقة والإحسان ما أمكنه، فإنَّ لذلك تأثيرًا عجيبًا في دَفْعِ البلاء، ودفعِ العين، وشرِّ الحاسد، ولو لم يكن في هذا إلا تجارِبُ الأممِ قديمًا وحديثًا لكفى به، فما يكادُ العينُ والحسدُ والأذى يتسلَّطُ على محسنٍ متصدِّقٍ، وإن أصابه شيءٌ من ذلك كان

= والضياء في «المختارة»: (١/١٥٠) من حديث أبي بكر - رضي الله عنه - . قال الضياء: «وسنده ضعيف» .

معاملاً فيه باللطف والمعونة والتأييد، وكانت له فيه العاقبة الحميدة .
فالمحسنُ الْمُتَصَدِّقُ في خَفَّارَةِ إِحْسَانِهِ وَصَدَقْتَهُ، عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ جُنَّةٌ
وَاقِيَةٌ وَحِصْنٌ حَصِينٌ، وَبِالْجَمَلَةِ؛ فَالشُّكْرُ حَارِسُ النِّعْمَةِ مِنْ كُلِّ
مَا يَكُونُ سَبَبًا لِرِزْوَالِهَا .

ومن أقوى الأسباب حَسَدَ الحاسدِ والعائنِ، فإنه لا يَقْتَرُ ولا يَبِي
ولا يبردُ قلبه حتى تزولَ النعمةُ عن المحسودِ، فحينئذ يبردُ أُنَيْتُهُ
وتنطفئُ نَارُهُ - لا أطفأها (ق/١٨٨) اللهُ - فما حرس العبدُ نعمة الله
تعالى عليه بمثل شكرها، ولا عَرَضَهَا لِلرِّزْوَالِ بمثل العمل فيها
بمعاصي الله وهو كُفْرَانُ النعمة، وهو باب إلى كُفْرَانِ المنعم .

فالمحسنُ الْمُتَصَدِّقُ يَسْتَعْمِدُ جُنْدًا وَعَسْكَرًا يَقَاتِلُونَ عَنْهُ وَهُوَ نَائِمٌ
عَلَى فِرَاشِهِ، فَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ جُنْدٌ وَلَا عَسْكَرٌ وَلَهُ عَدُوٌّ فَإِنَّهُ يُوْشِكُ أَنْ
يَظْفَرَ بِهِ عَدُوُّهُ، وَإِنْ تَأَخَّرَتْ مُدَّةُ الظَّفْرِ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ .

السبب التاسع: - وهو من أصعب الأسباب على النفس، وأشقها
عليها، ولا يوقُّ له إلا من عَظُمَ حَظُّهُ مِنَ اللَّهِ - وهو: إطفاء نار
الحاسدِ والباعِغِ والمؤذي بالإحسان إليه، فكلما ازداد أذَى وشراً
وبغياً وحسداً ازدادت إليه إحساناً وله نصيحةٌ وعليه شفقةٌ، وما أظنُّكَ
تصدِّقُ بأن هذا يكون فضلاً عن أن تتعاطاه، فاسمع الآن قوله
عز وجل: ﴿ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي
بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا
ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّمَا يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴿١﴾ [فصلت: ٣٤ - ٣٦]، وقال: ﴿ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا

(١) هذه الآية ليست في (ع)، وكذا سقطت ونصف التي بعدها من (ق).

صَبْرًا وَيَدْرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٥٤﴾ [القصص: ٥٤].

وتأمل حال النبي ﷺ الذي حكى عنه نبينا ﷺ^(١) أنه ضربه قومه حتى أدموه، فجعل يسأل الدّم عنه، ويقول: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ»^(٢) كيف جمع في هذه الكلمات أربع مقامات من الإحسان، قابل بها إساءتهم العظيمة إليه:

أحدها: عفوهم عنهم.

والثاني: استغفاره لهم.

الثالث: اعتذاره عنهم بأنهم لا يعلمون.

الرابع: استعطافه لهم بإضافتهم إليه، فقال: «اغْفِرْ لِقَوْمِي»، كما يقول الرجل لمن يشفع عنده فيمن يتصل به: هذا ولدي، هذا غلامي، هذا صاحبي فهبه لي.

واسمع الآن ما الذي يسهل هذا على النفس ويطيئه لها وينعمها به: اعلم أن لك ذنوبًا بينك وبين الله تخاف عواقبها وترجوه أن يعفو عنها ويغفرها لك ويهبها لك، ومع هذا لا يقتصر على مجرد العفو والمسامحة حتى ينعم عليك ويكرمك ويجلب إليك من المنافع والإحسان فوق ما تؤمله، فإذا كنت ترجو هذا من ربك أن يقابل به إساءتك، فما أولاك وأجدرك أن تعامل به خلقه وتقابل به^(٣) إساءتهم، ليعاملك الله هذه المعاملة، فإن الجزاء من جنس العمل،

(١) «الذي حكى عنه نبينا ﷺ» سقطت من (ق)، وفي (ع) بدلًا من «نبينا»: «النبي».

(٢) أخرجه البخاري رقم (٣٤٧٧)، ومسلم رقم (١٧٩٢) من حديث ابن مسعود

- رضي الله عنه -.

(٣) (ع): «بهم».

فكما تعملُ مع الناس في إساءتهم (ق/١١٨٩) في حَقِّكَ يفعلُ اللهُ معكَ في ذنوبك وإساءتك جزاءً وفاقاً، فانتقم بعد ذلك أو اعْفُ، وأحْسِنُ أو اتركْ، فكما تَدِينُ تُدَانُ، (ظ/١٤١ب) وكما تفعلُ مع عباده يُفعلُ معكَ .

فمن تصوّرَ هذا المعنى وشغَلَ به فكرُهُ، هان عليه الإحسانُ إلى من أساء إليه، هذا مع ما يحصل له بذلك من نصر الله ومعونته ومعيته الخاصة، كما قال النبي ﷺ للذي شكى إليه قرابتهُ وأنه يُحسِنُ إليهم وهم يُسيئون إليه، فقال: «لَا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللَّهِ ظَهِيرٌ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ»^(١)، هذا مع ما يتعجَّلُهُ من ثناء الناس عليه، ويصيرون كلُّهم معه على خصمه، فَإِنَّ كُلَّ مَنْ سَمِعَ أَنَّهُ يَحْسِنُ إِلَى ذَلِكَ الْغَيْرِ وَهُوَ مُسِيءٌ إِلَيْهِ، وَجَدَ قَلْبَهُ وَدَعَاءَهُ وَهَمَّتَهُ مَعَ الْمُحْسِنِ عَلَى الْمُسِيءِ، وَذَلِكَ أَمْرٌ فَطَرِيٌّ فَطَرَ اللهُ عَلَيْهِ عِبَادَهُ، فَهُوَ بِهَذَا الْإِحْسَانِ قَدْ اسْتَحْدَمَ عَسْكَرًا لَا يَعْرِفُهُمْ وَلَا يَعْرِفُونَهُ، وَلَا يَرِيدُونَ مِنْهُ إِقْطَاعًا وَلَا خَبْرًا، هَذَا مَعَ أَنَّهُ لَا بُدَّ لَهُ مَعَ عَدُوِّهِ وَحَاسِدِهِ مِنْ إِحْدَى حَالَتَيْنِ: إِمَّا أَنْ يَمْلِكَهُ بِإِحْسَانِهِ فَيَسْتَعْبِدُهُ وَيُنْقَادَ لَهُ وَيَذِلَّ لَهُ وَيَبْقَى مِنْ أَحِبِّ النَّاسِ إِلَيْهِ، وَإِمَّا أَنْ يُفْتَتَّ كَبِدُهُ وَيَقْطَعَ دَابِرُهُ إِنْ أَقَامَ عَلَى إِسَاءَتِهِ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ يُذِيْقُهُ^(٢) بِإِحْسَانِهِ أَضْعَافَ مَا يَنَالُ مِنْهُ بِانْتِقَامِهِ، وَمَنْ جَرَّبَ هَذَا عَرَفَهُ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ، وَاللَّهُ هُوَ الْمَوْفِقُ الْمَعِينُ، بِيَدِهِ الْخَيْرُ كُلُّهُ، لَا إِلَهَ غَيْرُهُ^(٣)، وَهُوَ الْمَسْئُولُ أَنْ يَسْتَعْمِلَنَا وَإِخْوَانَنَا فِي ذَلِكَ بِمَنَّةٍ وَكِرْمِهِ.

وفي الجملة؛ ففي هذا المقام من الفوائد ما يزيدُ على مئة منفعةٍ للعبد عاجلةٍ وآجلةٍ، سنذكرها في موضعٍ آخرٍ إن شاء اللهُ تعالى.

(١) أخرجه مسلم رقم (٢٥٥٨) من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - .

(٢) كذا في (ظ وذ)، وفي (ع وق): «يذبحه».

(٣) (ق): «إلا هو».

السبب العاشر: - وهو الجامعُ لذلك كُلُّه وعليه مدارُ هذه الأسباب - وهو: تجريدُ التوحيد والترُّحلُ بالفكر في الأسباب إلى المسبِّب العزيز الحكيم.

والعلم بأن هذه آلاتٌ بمنزلة حركات الرياح، وهي بيد محرِّكها وفاطرها وبارئها، ولا تضرُّ ولا تنفعُ إلا بإذنه، فهو الذي يمسُّ^(١) عبده بها، وهو الذي يصرفُها عنه وحده لا أحد سواه، قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنَّ يُرَدِّكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧].

وقال النبي ﷺ لعبدالله بن عباس رضي الله عنهما: «واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك^(٢) لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضرُّوك لم يضرُّوك إلا بشيء كتبه الله عليكم^(٣)، فإذا جرَّد العبد التوحيد فقد خرج من قلبه خوفٌ ما سواه، وكان عدوُّه أهونَ عليه من أن يخافه مع الله تعالى، بل يفردُ الله بالمخافة، وقد أمَّنه منه، وخرج من قلبه^(٤) اهتمامه به واشتغاله به وفكره فيه، وتجرَّد لله محبةً وخشيةً وإنابةً وتوكلًا واشتغاله به عن غيره، فيرى أن أعماله فكره في أمر عدوِّه وخوفه منه واشتغاله به من نقص توحيدِهِ، وإلا فلو جرَّد توحيدَهُ لكان له فيه شغلٌ شاغلٌ، والله يتولَّى حفظه والدفعَ عنه، فإن الله يدفع^(٥) عن الذين آمنوا، فإن كان

(١) كذا في (ق وع)، و(ظ ود): «يحس» وكتب في هامش (د): «لعله يمتحن».

(٢) (ع) زيادة: «بشيء».

(٣) تقدم تخريجه ص/ ٧٦٥.

(٤) من قوله: «خوف ما سواه...» إلى هنا ساقط من (ق).

(٥) كذا في جميع النسخ.

مؤمنًا فالله يدفعُ عنه ولا بُدَّ، وبحسب إيمانه يكون دفاعُ الله عنه، فإن كَمَلَ إيمانهُ كان دفعُ الله عنه أتمَّ دفع، وإن مَزَجَ مَزَجَ له، وإن كان مرَّةً ومرَّةً فالله له مرَّةً ومرَّةً، كما قال بعضُ السلف: من أقبل على الله بكُلِّيَّته أقبل الله عليه جملةً، ومن أعرض عن الله بكُلِّيَّته أعرض الله عنه جملةً، ومن كان مرَّةً ومرَّةً فالله له مرَّةً ومرَّةً.

فالتوحيد حصنُ الله الأعظم الذي من دخله كان من الآمنين، قال بعضُ السلف^(١): من خاف الله خافه كلُّ شيء، ومن لم يخفِ الله أخافه من كلِّ شيء.

فهذه عشرة أسباب يندفعُ بها شرُّ الحاسد والعائن والساحر، وليس له أنفعُ من التوجُّه إلى الله وإقباله عليه وتوكُّله عليه وثقته به وأن لا يخاف معه غيره، بل يكونُ خوفُه منه وحده ولا يرجو سواه، بل يرجوه وحده^(٢) فلا يعلقُ (ظ/١٤٢) قلبه بغيره، ولا يستغيثُ بسواه، ولا يرجو إلا إياه ومتى علَّق قلبه بغيره ورجاه وخافه وُكِلَ إليه وخُذِلَ من جهته، فمن خاف شيئاً غير الله سلَّط عليه، ومن رجا شيئاً سوى الله خُذِلَ من جهته^(٣) وحُرِمَ خَيْرُهُ، هذه سنَّةُ الله في خلقه: ﴿وَلَنْ نَحْدِلَ سُنَّةَ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢].

فصل

فقد عرفتَ بعضَ ما اشتملت عليه هذه السُّورةُ من القواعد النَّافعةِ المهمَّةِ، التي لا غنى للعبد عنها في دينه ودنياه، ودلَّت على أن

(١) هو يوسف بن أسباط، انظر «الحلية»: (٨/٢٤٠).

(٢) من قوله: «وثقته به...» إلى هنا ساقط من (ق).

(٣) من قوله: «فمن خاف...» إلى هنا ساقط من (ع).

نفوس الحاسدين وأعينهم لها تأثير، وعلى أن الأرواح الشيطانية لها تأثير بواسطة السحر والنفث في العقد، وقد افترق العالم في هذا المقام أربع فرق:

فرقة: أنكرت تأثير هذا وهذا^(١)، وهم فرقتان: فرقة اعترفت بوجود النفوس الناطقة والجن، وأنكرت تأثيرهما ألبتة، وهذا قول طائفة من المتكلمين ممن أنكر الأسباب والقوى والتأثيرات، وفرقة أنكرت وجودهما بالكلية، وقالت: لا وجود لنفس الأدمي سوى هذا الهيكل المحسوس وصفاته وأعراضه فقط، ولا (ق/١١٩٠) وجود للجن والشياطين سوى أعراض قائمة به، وهذا قول كثير من ملاحدة الطبائعيين وغيرهم من الملاحدة المنتسبين إلى الإسلام، وهو قول شذوذ من أهل الكلام الذين ذمهم السلف وشهدوا عليهم بالبدعة والضلالة.

الفرقة الثانية: أنكرت وجود النفس الإنسانية المفارقة للبدن، وأقرت بوجود الجن والشياطين، وهذا قول كثير من المتكلمين من المعتزلة وغيرهم.

الفرقة الثالثة: بالعكس أقرت بوجود النفس الناطقة المفارقة للبدن، وأنكرت وجود الجن والشياطين، وزعمت أنها غير خارجة عن قوى النفس وصفاتها، وهذا قول كثير من الفلاسفة الإسلاميين وغيرهم.

وهؤلاء يقولون: إن ما يوجد في العالم من التأثيرات الغريبة والحوادث الخارقة، فهي من تأثيرات النفس، ويجعلون السحر والكهانة كله من تأثير النفس وحدها بغير واسطة شيطان منفصل، وابن سينا وأتباعه على هذا القول، حتى إنهم يجعلون معجزات الرسل من هذا

(١) «هذا» الثانية سقطت من (ع).

الباب، ويقولون^(١): إنما هي من تأثيرات النَّفْسِ فِي هَيُولَى الْعَالَمِ،
وهؤلاء كَفَّارٌ بِإِجْمَاعِ أَهْلِ الْمِلَّةِ، ليسوا من أتباع الرُّسُلِ جَمَلَةً.

الفرقة الرابعة: وهم أتباعُ الرسل وأهل الحق أقرُّوا بوجود النفس
الناطقة المفارقة للبدن، وأقرُّوا بوجود الجن والشياطين، وأثبتوا
ما أثبتَهُ اللهُ تَعَالَى مِنْ صِفَاتِهِمَا وَشَرَّهُمَا، واستعادوا بالله تَعَالَى مِنْهُ،
وعلموا أَنَّهُ لَا يُعِيدُهُمْ مِنْهُ وَلَا يُجِيرُهُمْ إِلَّا اللهُ تَعَالَى، فهؤلاء أهلُ
الحق، ومن عداهم مفرطٌ فِي الْبَاطِلِ أَوْ مَعَهُ بَاطِلٌ وَحَقٌّ، والله تَعَالَى
يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. فهذا مَا يَسَّرَ اللهُ تَعَالَى مِنَ الْكَلَامِ
عَلَى سُورَةِ (الْفَلَق).

* * *

(١) من (ع) فقط.

وأما سورة (الناس)؛ فقد تَضَمَّنَتْ - أيضاً - استعاذةً ومستعاذاً به ومستعاذاً^(١) منه، فالاستعاذةُ قد^(٢) تقدَّمت. وأما المستعاذُ به فهو الله تعالى: ﴿يَرْبِّيَ النَّاسَ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾﴾، فذكر ربوبيته للناس، وملكه إياهم، وإلاهيته لهم، ولا بُدَّ من مناسبة في ذكر ذلك في الاستعاذة من الشيطان، كما تقدم، فنذكر أولاً معنى هذه الإضافات الثلاث، ثم وجه مناسبتها لهذه الاستعاذة.

الإضافة الأولى: إضافة الربوبية المتضمنة لخلقهم وتدييرهم، وتربيتهم وإصلاحهم، وجلب مصالحهم وما يحتاجون إليه، ودفع الشرِّ عنهم وحفظهم مما يفسدُهم، هذا معنى ربوبيته لهم، وذلك (ق/١٩٠ب) يتضمَّن قدرتهُ التامةُ ورحمته الواسعة، وإحسانه وعلمه بتفاصيل أحوالهم (ظ/١٤٢ب) وإجابة دعواتهم وكشف كُرباتهم.

الإضافة الثانية: إضافة الملك فهو مَلِكُهُم الْمُتَصَرِّفُ فِيهِمْ، وهم عبيدُه ومماليكُه، وهو المتصرف لهم المدبِّرُ لهم كما يشاء، النافذُ القدرة فيهم، الذي له السلطانُ التامُّ^(٣) عليهم، فهو مَلِكُهُم الْحَقُّ الذي إليه مَفْزَعُهُمْ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَالنَّوَابِ، وهو مُسْتَعَاذُهُمْ وَمَعَاذُهُمْ وَمَلْجَأُهُمْ، فلا صلاحَ لهم ولا قيامَ إلا به وبتدييره، فليس لهم مَلِكٌ غيره يهربون إليه إذا دهمهم العدوُّ، ويستنصرون^(٤) به إذا نزل العدوُّ بساحتهم.

(١) «به ومستعاذاً» سقطت من (ظ ود)، و«به» وحدها سقطت من (ق).

(٢) من (ع).

(٣) ليست في (ظ و د).

(٤) (ظ): «ويستنصرون».

الإضافة الثالثة: إضافة الإلهية فهو إلههم الحق، ومعبودهم الذي لا إله لهم سواه، ولا معبود لهم غيره. فكما أنه وحده هو ربهم ومليكنهم لم يشركه في ربوبيته ولا في ملكه لهم^(١) أحد، فكذلك هو وحده إلههم ومعبودهم، فلا ينبغي أن يجعلوا معه شريكاً في إلهيته، كما لا شريك معه في ربوبيته ومملكته.

وهذه طريقة القرآن الكريم يحتج عليهم بإقرارهم بهذا التوحيد على ما أنكروه من توحيد الإلهية والعبادة، وإذا كان وحده هو ربنا وملكننا وإلهنا فلا مفرغ لنا في الشدائد سواه، ولا ملجأ لنا منه إلا إليه، ولا معبود لنا غيره، فلا ينبغي أن يدعى ولا يخاف ولا يرجى ولا يحب سواه، ولا يذل لغيره، ولا يخضع لسواه، ولا يتوكل إلا عليه؛ لأن من ترجوه وتخافه وتدعوه وتتوكل عليه إما أن يكون مربيك والقيّم بأمورك ومتولي شأنك، وهو ربك فلا رب لك سواه؛ أو تكون مملوكه وعبده الحق، فهو ملك الناس حقاً، وكلهم عبيده ومماليكه.

أو يكون معبودك وإلهك الذي لا تستغني عنه طرفة عين، بل حاجتك إليه أعظم من حاجتك إلى حياتك وروحك، وهو الإله الحق، إله الناس الذي لا إله لهم سواه، فمن كان ربهم ومليكنهم وإلههم فهم جديرون أن لا يستعينوا بغيره، ولا يستنصروا بسواه، ولا يلجأوا إلى غير حماه، فهو كافيتهم وحسبهم وناصرهم، ووليهم ومتولي أمورهم جميعاً بربوبيته وملكه وإلهيته لهم، فكيف لا يلتجئ العبد عند النوازل^(٢) ونزول عدوه به إلى ربه ومالكة وإلهه؟! فظهرت

(١) من (ع و ق).

(٢) (ق): «إلى ربه».

مناسبة هذه الإضافات الثلاث للاستعاذة من أعدى (ق/١٩١) الأعداء وأعظمهم عداوةً وأشدّهم ضرراً وأبلغهم كيّداً.

ثم إنه سبحانه كرّر الاسم الظاهر ولم يوقع المضمّر موقعه، فيقول: ربُّ الناس وملكهم وإلههم، تحقيقاً لهذا المعنى وتقويةً له، فأعاد ذكرهم عند كلِّ اسم من أسمائه، ولم يعطف بالواو لما فيها من الإيذان بالمغايرة.

والمقصود الاستعاذة بمجموع هذه الصّفات حتى كأنها صفةٌ واحدةٌ، وقدم الربوبيةَ لعمومها وشمولها لكلِّ مربوب، وأخرَ الإلهيةَ لخصوصها؛ لأنه سبحانه إنما هو إلهٌ من عبّده ووحدّه، واتخذهُ دون غيره إلهًا، فمن لم يعبده ويوحّده فليس بإلهه، وإن كان في الحقيقة لا إله له سواه، ولكن تركَ إلهه الحق واتخذَ إلهًا غيره، ووسّطَ صفةَ الملك بين الربوبية والإلهية؛ لأن الملك هو المتصرّف بقوله وأمره، فهو المطاعُ إذا أمر، وملكه لهم تابع لخلقه إياهم، فملكه من كمال ربوبيته، وكونه إلههم الحق من كمال ملكه، فربوبيته تستلزم ملكه وتقتضيه، وملكه يستلزم إلهيته ويقتضيها، فهو الرّبُّ الحق، الملك الحق، الإله الحق، خلقهم بربوبيته، وقهرهم بملكه، استعبدهم بإلهيته، فتأمّل هذه الجلالة وهذه العظمة التي تضمّنتها هذه الألفاظ الثلاثة على أبداع نظام وأحسن سياق: ﴿يَرْبِي النَّاسَ﴾ ١ ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ ٢ ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ ٣، وقد اشتملت هذه الإضافات الثلاثُ على جميع قواعد الإيمان، وتضمّنت معاني أسمائه الحسنى.

أما تضمّنها (ظ/١٤٣) لمعاني أسمائه الحسنى؛ فإن الرّبَّ هو: القادرُ الخالقُ الباريُّ المصورُّ الحيُّ القيّومُ العليمُ السميعُ البصيرُ المحسِنُ المُنعمُ الجوادُّ المعطيُّ المانعُ الضارُّ النافعُ المُقدّمُ المؤخّرُ،

الذي يُضِلُّ من يشاءُ ويهدي من يشاءُ، ويُسعد من يشاءُ ويُشقي من يشاءُ ويعزُّ من يشاءُ ويُذلُّ من يشاءُ إلى غير ذلك من معاني ربوبيته التي له منها ما يستحقُّه من الأسماء الحسنى.

وأما الملك؛ فهو الأمر الناهي المعزُّ المذلُّ الذي يصرف أمورَ عباده كما يحبُّ، ويقلبهم كما يشاءُ، وله من معنى الملك ما يستحقُّه من الأسماء الحسنى؛ كالعزيز الجبار المتكبر الحكيم العدل الخافض الرافع المعز المذل العظيم الجليل الكبير الحسيب المجيد الوالي^(١) المتعالي مالك الملك المقسط الجامع، إلى غير ذلك من الأسماء العائدة إلى الملك.

وأما الإله؛ فهو الجامعُ (ق/١٩١ب) لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال، فيدخلُ في هذا الاسم جميعُ الأسماء الحسنى، ولهذا كان القولُ الصحيح أن «الله» أصلُه «الإله» كما هو قول سيوييه وجمهور أصحابه إلا من شدَّ منهم^(٢)، وأن اسم الله تبارك وتعالى هو الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنى والصفات العلى، فقد تضمَّنت^(٣) هذه الأسماء الثلاثة جميعَ معاني أسمائه الحسنى، فكان المستعبد بها جديرًا بأن يُعَادَ وَيُحْفَظَ وَيُمنَعَ من الوسواس الخناس ولا يُسلَطَ عليه.

وأسرارُ كلامِ الله أجلُّ وأعظمُ من أن تدركها عقولُ البشر، وإنما غايةُ أولي العلم الاستدلال بما ظهر منها على ما وراءه، وإن باديه إلى الخافي يسير.

(١) (ع): «الولي».

(٢) انظر ما تقدم من هذا الكتاب (١/٣٩-٤٠).

(٣) (ق): «شملت».

فصل

وهذه السورة مشتملة على الاستعاذة من الشر الذي هو سبب الذنوب والمعاصي كلها، وهو الشرُّ الداخل في الإنسان الذي هو منشأ العقوبات في الدنيا والآخرة، فسورة (الفلق) تضمّنت الاستعاذة من الشرِّ الذي هو ظلمُ الغير له بالسحر والحسد، وهو شرٌّ من خارج، وسورة (الناس) تضمّنت الاستعاذة من الشر الذي هو سبب ظلم العبد نفسه، وهو شرٌّ من داخل.

فالشرُّ الأول: لا يدخلُ تحت التكليف، ولا يُطلب منه الكف عنه؛ لأنه ليس من كسبه، والشرُّ الثاني في سورة (الناس): يدخل تحت التكليف، ويتعلّق به النهي، فهذا شرُّ المعايب، والأول شرُّ المصائب، والشرُّ كله يرجعُ إلى العيوب والمصائب، ولا ثالث لهما، فسورة (الفلق) تتضمّن الاستعاذة من شر المصيبات^(١)، وسورة (الناس) تتضمّن الاستعاذة من شرِّ العيوب التي أصلها كلها الوسوسة.

فصل

إذا عَرِفَ هذا فالوَسْوَاسُ: فَعْلَالٌ^(٢)، من وَسْوَسَ، وأصل الوَسْوَسَةِ: الحَرَكَةُ، أو الصَّوْتُ الخَفِيُّ الذي لا يُحَسُّ فيُحْتَرَزُ منه، فالوَسْوَاسُ: الإلقاءُ الخَفِيُّ في النفس، إما بصوتٍ خَفِيٍّ لا يسمعه إلا من أَلْقَى إليه، وإما بغير صوت كما يُوسِّسُ الشَّيْطَانُ (ق/١١٩٢) إلى العبد، ومن هذا «وَسْوَسَةُ الحَلِيِّ»، وهو حركتهُ الخَفِيَّةُ في الأذن، والظاهر - واللهُ أعلم - أنها سُمِّيَتْ: «وَسْوَسَةُ الحَلِيِّ»^(٣) لقربها، وشدة مجاورتها

(١) (ظ و د): «المصائب».

(٢) (ق و ظ و د): «فعلان».

(٣) «الحلي» من (ع) فقط.

لمحل الوسوسة من شياطين الإنس وهو الأذن، فقيل: «وَسُوسَةَ الحَلِي»؛ لأنه صوت مجاورٌ للأذن، كوسوسة الكلام الذي يُلقِيه الشيطانُ في أذن مَنْ يوسوسُ له.

ولما كانت الوسوسةُ كلامًا يكرّره الموسوسُ ويؤكدُه عند من يُلقِيه إليه كرّروا لفظها بإزاء تكرير معناها، فقالوا: وَسُوسَ وَسُوسَةً، فراعوا تكرير اللفظ ليفهم منه تكرير مسماه.

ونظير هذا ما تقدّم^(١) من متابعتهم حركة اللفظ بإزاء متابعة حركة معناه كالذَّوْران والغَلِيان والتَّزْوَان، وبابه، ونظير ذلك: «زَلْزَلَ ودَكَّكَ وقَلْقَلَ وكَبَّكَ الشَّيْءَ»؛ لأن الزَّلْزَلَةَ: حركةٌ متكرّرةٌ، وكذلك: «الدَّكَّكَ والقَلْقَلَةَ»، وكذلك كَبَّكَ الشَّيْءَ: إذا كَبَّه في مكانٍ بعيد، فهو يكبُّ فيه كبًّا بعد كبٍّ، كقوله تعالى: ﴿فَكَبَّكِبًا فِيهَا هُمٌ وَالْغَاوُونَ﴾ [الشعراء: ٩٤] (ظ/١٤٣ب) ومثله رَضْرَضَهُ: إذا كرَّرَ رَضَّهُ مرَّةً بعد مرَّةً، ومثله ذَرْدَرَهُ: إذا ذرَّه شيئًا بعد شيء، ومثله: صَرَصَرَ البابُ: إذا تَكَرَّرَ صريره، ومثله: مَطَمَطَ الكلامَ: إذا مطَّه شيئًا بعد شيء، ومثله: كَفَكَفَ الشَّيْءَ: إذا كرَّرَ كَفَّهُ، وهو كثير.

وقد عُلِمَ بهذا أن من جعل هذا الرباعي بمعنى الثلاثي المضاعف لم يصب؛ لأن الثلاثي لا يدل على تكرار، بخلاف الرباعي المكرر، فإذا قلت: (ذرَّ الشيء، وصرَّ الباب، وكفَّ الثوب، ورضَّ الحب) لم يدلَّ على تكرار الفعل بخلاف ذرْدَرَهُ وصَرَصَرَ ورضْرَضَ، ونحوه، فتأمله فإنه مطابق لقاعدة العربية في الحذو بالألفاظ حذو المعاني^(٢)،

(١) (١٨٩/١) من هذا الكتاب.

(٢) (ع): «لحذف بالألفاظ حذف...».

وقد تقدم التنبيه على ذلك فلا وجه لإعادته.

وكذلك قولهم: عَجَّ العَجْلُ^(١): إذا صَوَّتَ، فإن تابع صوته قالوا: عَجَّعَجَ، وكذلك: ثَجَّ الماء: إذا صُبَّ، فإن تكرر ذلك قيل: ثَجَّجَ، والمقصود أن المَوْسُوسَ لما كان يكرِّرُ وَسْوسَتَهُ ويتابَعها قيل: وَسْوسَ.

فصل

إذا عُرِفَ هذا فاختلف الثُّحَاةُ في لفظ (الْوَسْوَاسِ) هل هو وصفٌ أو مصدرٌ؟ على قولين، ونحن نذكر حُجَّةً^(٢) كُلُّ قول ثم نبيِّنُ الصحيح من القولين بعون الله تعالى وفضله:

فأما من ذهبَ إلى أنه مصدر، فاحتجَّ بأن الفعل منه: فَعَلَّلَ، والوصف من: فَعَلَّلَ إنما هو: «مُفَعَّلِلٌ» كَمُدَّخِرِجٍ وَمُسْرَهْفٍ وَمُبَيْطِرٍ وَمُسَيْطِرٍ، وكذلك هو من: فَعَلَ بوزن: «مَفْعَلٌ» كَمَقْطَعٍ وَمَخْرَجٍ، وبابه، فلو كان الوَسْوَاسُ صِفَةً لَقِيلَ: مَوْسُوسٌ، ألا ترى (ق/١٩٢ب) أن اسم الفاعل من زَلَزَلَ: مُزَلِّزٌ، لا زَلَزَالَ، وكذلك من دَكَّدَكَ: مُدَكِّدٌ، وهو مَطَّرِدٌ، فدَلَّ على أن الوَسْوَاسَ مصدرٌ وُصِفَ به على وجه المبالغة، أو يكون على حذف مضاف تقديره: ذُو الوَسْوَاسِ. قالوا: والدليل عليه أيضًا قول الشاعر^(٣):

* تَسْمَعُ لِلْحَلِيِّ بِهَا وَسْوَاسًا *

(١) (ق): «الفعل».

(٢) (ع): «حجة على...».

(٣) هو الأَعشى، من معلقته، والبيت:

تسمع للحلي وسواسا إذا انصرفت كما استعانَ بِرِيحِ عَشْرِقِ زَجَلُ
«ديوانه»: (ص/٣٠٠).

فهذا مصدر بمعنى الوسوسة سواء .

قال أصحاب القول الآخر^(١): الدليل على أنه وصف أن «فَعَلَلَّ» ضَرْبَانِ: أحدهما: صحيح لا تكرار فيه؛ كدَخَرَجَ وَسَرَّهَفَ^(٢) وَبَيَّطَرَ^(٣)، وقياس مصدر هذه: «الفَعْلَلَّة»، كالدَّخْرَجَةِ والسَّرْهَفَةِ والبيَّطَرَةِ، و«الفِعْلَال» - بكسر الفاء - كالسَّرْهَافِ والدَّخْرَاجِ، والوصف منه «مُفَعَّلِلٌ» كمدَخَرَجٍ ومُبيَّطِرٍ.

والثاني: «فَعَلَلَّ» الثنائي المكرر؛ كزَلَزَلَ ودَكَدَكَ وَسَوَّسَ، وهذا فرعٌ على «فَعَلَلَّ» المجرد عن التكرار؛ لأن الأصل السلامة من التكرار، ومصدر هذا النوع والوصف منه مساوٍ لمصدر الأول ووصفه، فمصدره يأتي على «الفعللة»؛ كالوسَّوسَةِ والرَّزَلَةِ، و«الفِعْلَال» كالزَّلْزَالِ، وأقيس المصدرين وأولاهما بنوعي فَعَلَلَّ: «الفِعْلَال» لأمرين:

أحدهما: أن «فَعَلَلَّ» مشاكل لـ «أفَعَلَ» في عدد الحروف، وفتح الأول والثالث والرابع وسكون الثاني، فجُعِلَ «إفعال» مصدر «أفعل»، و«فِعْلَال» مصدر «فَعَلَلَّ»، ليتشاكل المصدران، كما يتشاكل الفِعْلَانُ، فكان «الفِعْلَالُ» أولى بهذا الوزن من «الفعللة».

الثاني: أن أصل المصدر أن يخالفَ وزنه وزن فعله، ومخالفة «فِعْلَال» لـ «فَعَلَلَّ» أشدُّ من مخالفة «فَعْلَلَّة» له، فكان «فِعْلَال» أحقَّ بالمصدرية من «فَعْلَلَّة»، أو تساويا في الاطراد مع أن «فَعْلَلَّة» أرجحُ في الاستعمال وأكثرُ، هذا هو الأصل.

(١) النص من هنا إلى ص/ ٧٨٩ من كلام ابن مالك، نقله السيوطي في «الأشباه والنظائر»: (٤/ ٥١ - ٥٤).

(٢) السَّرْهَفَةُ: نعمة الغذاء. انظر «اللسان»: (٩/ ١٥١).

(٣) أصل البَطْر: الشق، ومنه أخذ البيطار وهو: معالج الدواب. انظر: «اللسان»: (٤/ ٦٩).

وقد جاءوا بمصدر هذا الوزن المكرر مفتوح الفاء، فقالوا: «وَسَوَسَ الشَّيْطَانُ وَسَوَاسًا»، و«وَعَوَعَ الكَلْبُ وَعَوَاعًا» إذا عوى، و«عَظَّعَ السَّهْمُ»^(١) عَظَّعًا، والجاري على القياس: «فَعَلَّالٌ» بكسر الفاء، أو «فَعَلَّلَةٌ»، وهذا المفتوح نادر؛ لأن الرُّبَاعِيَّ الصحيحَ أصلٌ للمتكرَّر، ولم يأتِ مصدر الصحيح مع كونه أصلًا إلا على «فَعَلَّلَةٌ وَفَعَلَّلَالٌ» بالكسر، فلم يحسن بالرباعي المكرر لفرعيته أن يكون مصدره (ظ/١٤٤) إلا كذلك؛ لأن الفرع لا يخالف أصله، بل يحتذي فيه حدوه، وهذا يقتضي أن لا يكون مصدره على «فَعَلَّلَالٌ» بالفتح، فإن شَدَّ حُفِظَ ولم يُرَدَّ عليه.

قالوا: وأيضًا فإن «فَعَلَّلَالًا» المفتوح الفاء قد كثر وقوعه صفةً مصوغةً من «فَعَلَّلَ» المكرر ليكون (ق/١٩٣) فيه نظير «فَعَالٌ» من الثلاثي لأنهما متشاركان وزنًا، فافتضى ذلك أن لا يكون لـ «فَعَلَّلَالٌ» من المصدرية نصيبٌ، كما لم يكن لـ «فَعَالٌ» فيها نصيبٌ، فلذلك استتدروا وقوع: (وَسَوَاسٌ وَوَعَوَاعٌ وَعَظَّعَاظٌ) مصادر، وإنما حُقِّها أن تكون صفاتٍ دالَّةً على المبالغة في مصادر هذه الأفعال.

قالوا: وإذا ثبت هذا فحُقُّ ما وقع منها محتملاً للمصدرية والوصفية أن يُحمل على الوصفية، حَمَلًا على الأكثر الغالب وتجنبًا للشاذِّ، فمن زعم أن (الْوَسَوَاسَ) مصدر مضاف إليه (ذو) تقديرًا، فقله خارج عن القياس والاستعمال الغالب، ويدلُّ على فساد ما ذهب إليه أمران:

(١) المعظظ من السهام هو الذي يضطرب ويلتوي، «اللسان»: (٤٤٧/٧).

وذكر في «اللسان» أن عَظَّعَاظًا - بفتح العين - محكية عن كراع وهي نادرة، والأشهر: عَظَّعَاظًا.

أحدهما: أن كلَّ مصدر أضيفَ إليه (ذو) تقديرًا فتجرُّدُهُ للمصدرية أكثرُ من الوصف به؛ كَرَضِيَ وَصَوِّمَ وَفَطَّرَ، و«فَعَلَّال» المفتوح لم يثبت تجرُّدُهُ للمصدرية إلا في ثلاثة ألفاظ فقط (وَسَوَّاسٍ وَوَعَوَّاعٍ وَعَظَّاعًا)، على أن منع المصدرية في هذا ممكنٌ؛ لأن غاية ما يمكنُ أن يُستدلَّ به على المصدرية قولهم: وَسَوَّسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ وَسَوَّاسًا، وهذا لا يتعيَّن للمصدرية؛ لاحتمال أن يُرادَ به الوصفية وينتصب «وَسَوَّاسًا» على الحال، ويكون حالاً مؤكِّدة، فإن الحال قد يؤكِّدُ بها عاملها الموافق لها لفظاً ومعنى، كقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ [النساء: ٧٩] ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مَسْحَرَاتٍ يَا مَعْرِبُ﴾، نعم إنما تتعيَّن مصدرية (الوَسَّاسِ) إذا سُمِعَ: «أعوذ بالله من وَسَّاسِ الشَّيْطَانِ»، ونحو ذلك مما يكون الوَسَّاسِ فيه مضافاً إلى فاعله، كما سُمِعَ ذلك في (الوَسَّاسَةِ) ولكن أين لكم ذلك؟ فهاتوا شاهده؟! فبذلك يتعيَّن أن يكون (الوَسَّاسِ) مصدرًا لا بانتصابه^(١) بعد الفعل.

الوجه الثاني: - من دليل فساد من زعم أن وسواسًا مصدرٌ مضافٌ إليه (ذو) تقديرًا: - أن المصدر المضاف إليه (ذو) تقديرًا لا يؤنَّثُ ولا يُثنى ولا يُجمعُ، بل يلزمُ طريقةً واحدةً، ليعلمَ أصالته في المصدرية وأنه عارض الوصفية، فيقال: امرأةٌ صَوِّمٌ، وامرأتان صَوِّمٌ، ونساءٌ صَوِّمٌ، لأن المعنى: ذاتٌ صَوِّمٌ، وذواتا صَوِّمٌ، وذوات صَوِّمٌ، و«فَعَلَّال» الموصوف به ليس كذلك، بل يثنى ويُجمعُ ويؤنَّثُ فتقول: رجلٌ ثَرَّارٌ، وامرأةٌ ثَرَّارةٌ، ورجالٌ ثَرَّارونٌ.

(١) من (ذ) و(ظ وق): «لانتصابه».

وفي الحديث: «أَبْغَضُكُمْ إِلَيَّ الْفَرْتَارُونَ الْمُتَفَيِّهُونَ»^(١) وقالوا: رِيحٌ زَفْرَافَةٌ، أي: تُحَرِّكُ الأشجارَ، وريحٌ سَفْسَافَةٌ، أي: تَنَحَّلُ التُّرَابَ، وَدِرْعٌ فَضْفَاضَةٌ، أي: مُتَّسِعَةٌ. والفعل من ذلك كله: «فَعَلَّلَ»، والمصدر: «فَعَلَّلَةٌ وَفَعْلَالٌ» بالكسر، ولم ينقل في شيء من ذلك: «فَعْلَالٌ» بالفتح.

وكذلك قالوا: تَمْتَامٌ، وَفَأْفَاءٌ، وَلَضْلَاضٌ، أي: ماهرٌ في الدَّلَالَةِ، وَفَجْفَاجٌ: كثيرُ الكلامِ، وَهَرَهَارٌ، أي: ضَحَّاكٌ، وَكَهْكَاهٌ وَوَطَاطٌ، أي: ضعيفٌ، وَحَشْحَاشٌ وَعَسْعَاسٌ، أي: خفيف^(٢)، وهو كثير ومصدره كله «الفَعْلَلَةُ» والوصف «فَعْلَالٌ» بالفتح.

ومثله: هَفْهَافٌ أي: حَمِيصٌ، ومثله: دَحْدَاحٌ أي: قَصِيرٌ، ومثله: بَجْبَاجٌ أي: جَسِيمٌ، وَتَخْتَاخٌ أي: أَلْكَنٌ، وَسَمْسَامٌ أي: سَرِيعٌ، وَشَيْءٌ خَشْخَاشٌ أي: مُصَوِّتٌ، وَقَعْقَاعٌ مثله، وَأَسَدٌ قَضْقَاضٌ أي: كَاسِرٌ، وَحِيَّةٌ نَضْضَانٌ: تُحَرِّكُ لسانها. فقد رأيت «فَعْلَالاً» في هذا كله وصفاً لا مصدرًا، فما بال الوَسْوَاسِ أُخْرِجَ عن نظائره وقياس بابه؟ فثبت أن وَسْوَاسًا وَصَفٌ لا مصدر؛ كَثَرْتَارٌ وَتَمْتَامٌ وَدَحْدَاحٌ، وبابه.

ويدلُّ عليه وجهٌ آخر وهو: أنه وَصَفَهُ بما يستحيلُ أن يكونَ مصدرًا، بل هو متعيِّنُ الوصفيةِ وهو الحَنَاسُ (ظ/١٤٤ب)، فالوسواسُ والحَنَاسُ

(١) أخرجه الترمذي رقم (٢٠١٨) من حديث جابر - رضي الله عنه - قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب».

وله شاهد من حديث أبي ثعلبة الخشني أخرجه أحمد: (٢٦٧/٢٩) رقم (١٧٧٣٢)، وابن حبان «الإحسان»: (٢٣١/٢)، وغيرهم، ورجاله ثقات إلا أن فيه انقطاعًا. وله شواهد أخرى يتقوى بها من حديث عبدالله بن عمرو وابن مسعود - رضي الله عنهم -.

(٢) «وعسعاس، أي: خفيف» سقطت من (ظ ود).

وصفان لموصوف^(١) محذوف وهو الشيطان، وحسن حذف الموصوف ههنا غلبة الوصف حتى صار كالعلم عليه، والموصوف إنما يقبح حذفه إذا كان الوصف مشتركاً فيقع اللبس؛ كالطويل والقبیح والحسن، ونحوه، فيتعين ذكر الموصوف ليعلم أن الصفة له لا لغيره، فأما إذا غلب الوصف واختص ولم يعرض فيه اشتراك، فإنه يجري مجرى الاسم، ويحسن حذف الموصوف؛ كالمسلم والكافر والبرّ والفاجر والقاصي والداني^(٢) والشاهد والوالي والأمير^(٣) ونحو ذلك، فحذف الموصوف هنا أحسن من ذكره، وهذا التفصيل أولى من إطلاق من منع حذف الموصوف ولم يفصل.

ومما يدل على أن الوسواس وصف لا مصدر: أن الوصفية أغلب على «فعلال» من المصدرية كما تقدم، فلو أريد المصدر لأتي بـ: (ذو) المضافة إليه، ليزول اللبس وتتعين المصدرية، فإن اللفظ إذا احتمل الأمرين على السواء، فلا بد من قرينة تدل على تعيين أحدهما، فكيف والوصفية أغلب عليه من المصدرية!؟

وهذا بخلاف صوم وفطر وباهما، فإنها مصادر لا تلتبس بالأوصاف، فإذا جرت أوصافاً علم أنها (ق/١٩٤) على حذف مضاف أو تنزيلاً للمصدر منزلة الوصف مبالغة على الطريقتين في ذلك، فتعين أن الوسواس هو الشيطان نفسه، وأنه ذات لا مصدر، والله أعلم.

(١) (ق): «لمصدر».

(٢) (ع): «العاصي»، و«الداني» من (ظ ود).

(٣) ليست في (ظ ود).

فصل

وأما الخناسُ: فهو «فَعَّالٌ» من: خَنَسَ يَخْنَسُ: إذا تَوَارَى واختَفَى. ومنه قول أبي هريرة: «لَقِينِي النَّبِيَّ ﷺ فِي بَعْضِ طَرَقِ الْمَدِينَةِ وَأَنَا جُنُبٌ فَأَخْنَسْتُ مِنْهُ»^(١). وحقيقة اللَّفْظِ اخْتِفَاءٌ بَعْدَ ظَهْوَرٍ، فَلَيْسَتْ لِمَجْرَدِ الْاِخْتِفَاءِ؛ وَلِهَذَا وَصِفَتْ بِهَا الْكَوَاكِبُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا أُقِيمُ بِالْخَنَسِ﴾ [التكوير: ١٥] قَالَ قَتَادَةَ: هِيَ النُّجُومُ تَبْدُو بِاللَّيْلِ وَتَخْنَسُ بِالنَّهَارِ فَتَخْتَفِي وَلَا تُرَى. وَكَذَلِكَ قَالَ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هِيَ الْكَوَاكِبُ تَخْنَسُ بِالنَّهَارِ فَلَا^(٢) تُرَى. وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: الْخَنَسُ: هِيَ الرَّاجِعَةُ، الَّتِي تَرْجِعُ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى جِهَةِ الْمَشْرِقِ، وَهِيَ السَّبْعَةُ السَّيَّارَةُ، قَالُوا: وَأَصْلُ الْخُنُوسِ: الرَّجُوعُ إِلَى وِرَاءِ^(٣).

وَالْخَنَاسُ هُوَ مَاخُودٌ مِنْ هَلْذِينَ الْمَعْنِيِّينَ، فَهُوَ مِنَ الْاِخْتِفَاءِ وَالرَّجُوعِ وَالتَّأخُّرِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا غَفَلَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ جَثَمَ عَلَى قَلْبِهِ الشَّيْطَانُ، وَانْبَسَطَ عَلَيْهِ، وَبَدَرَ فِيهِ أَنْوَاعَ الْوَسَاوِسِ الَّتِي هِيَ أَصْلُ الذُّنُوبِ كُلِّهَا، فَإِذَا ذَكَرَ الْعَبْدُ رَبَّهُ وَاسْتَعَاذَ بِهِ انْخَسَ وَانْقَبَضَ كَمَا يَنْخَسُ الشَّيْءُ يَتَوَارَى، وَذَلِكَ الْاِنْخَسَانُ وَالْاِنْقِبَاضُ هُوَ - أَيْضًا - تَجَمُّعٌ وَرَجُوعٌ وَتَأخُّرٌ عَنِ الْقَلْبِ إِلَى خَارِجٍ، فَهُوَ تَأخُّرٌ وَرَجُوعٌ مَعَهُ اخْتِفَاءٌ.

وَخَنَسَ وَانْخَسَ يَدُلُّ عَلَى الْأَمْرَيْنِ مَعًا. قَالَ قَتَادَةَ: الْخَنَاسُ لَهُ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ رَقْمَ (٢٨٣) وَمُسْلِمٌ رَقْمَ (٣٧١).

(٢) (ظ و د): «تخسن فلا...».

(٣) انظر أقوال السلف في «تفسير الطبري»: (١٢/٤٦٧ - ٤٦٩)، و«الدر المنثور»:

(٥٢٩/٦).

خُرْطُوم كخرطوم الكلب في صدر الإنسان، فإذا ذكر العبدُ ربَّهُ خَسَنَ (١).

ويقال: رأسه كرأس الحية وهو واضح رأسه على ثَمَرَةِ القلب يُمَنِّيهِ ويحدِّثُهُ، فإذا ذكر الله تعالى خَسَنَ، وإذا لم يذكره عادَ ووضع رأسه يوسوسُ إليه وَيُمَنِّيهِ (٢).

وجيء من هذا الفعل بوزن: «فَعَال» الذي للمبالغة دون الخَانِسِ والمُنْخَسِ إيدانًا بشدة هروبه ورجوعه وعِظَم نفوره عند ذكر الله، وأن ذلك دأبُهُ ودَيْدَنُهُ، لا أنه يعرضُ له عند ذكر الله أحيانًا، بل إذا ذُكِرَ اللهُ - عز وجل - هَرَبَ وانخَسَ وتأخَّرَ، فَإِنَّ ذِكْرَ اللهِ هو مِقْمَعَتُهُ التي يُقْمَعُ بها، كما يُقْمَعُ المفسدُ والشَّرِيرُ بالمقامع التي تَرُدُّعُهُ؛ من سِياطٍ وحديدٍ وعِصِيٍّ، ونحوها.

فذكر الله تعالى يقمعُ الشيطانَ ويؤلمُهُ ويؤذيه، كالسِّياطِ والمقامع التي تؤذي من يُضْرَبُ بها. ولهذا (ق/١٩٤ب) يكون شيطانُ المؤمن هزيلًا ضئيلًا مضمئًا مما يعذبه المؤمنُ ويقمعه به من ذكر الله وطاعته.

وفي أثر عن بعض السلف: «إِنَّ المؤمنَ يُضَيِّ شيطانه، كما

(١) ذكره البغوي في «تفسيره»: (٥٤٨/٤) بدون إسناد، وهو بنحوه مروى عن معاوية أخرجه ابن أبي داود في «ذم الوسوسة» - كما في «الدر: ٧٢١/٦»، وروى مرفوعًا من حديث أنس - رضي الله عنه - أخرجه أبو يعلى وابن شاهين والبيهقي في «الشعب» - كما في «الدر: ٧٢١/٦»، قال الحافظ في «الفتح»: (٦١٤/٨): «وإسناده ضعيف»، وروى عن ابن عباس وغيره نحوه.

(٢) نقله المؤلف من «تفسير البغوي»: (٥٤٨/٤)، وأخرجه سعيد بن منصور وابن أبي الدنيا وابن المنذر عن عروة بن رُويم أن عيسى بن مريم دعا ربَّهُ أن يريه موضع الشيطان من ابن آدم فجلى له ذلك... فذكره، انظر: «فتح الباري»: (٦١٤/٨)، و«الدر المنثور»: (٧٢٢/٦).

يُنْضِي الرَّجُلُ بَعِيرَهُ فِي السَّفَرِ»^(١)؛ لأنه كلما اعترضه صبٌّ عليه سياتَ الذِّكْرَ والتَّوَجُّهَ والاستغفار والطاعة، فشيطانه معه في عذاب شديد، ليس بمنزلة شيطان الفاجر الذي هو معه في راحةٍ ودعةٍ، ولهذا يكون قوياً^(٢) عاتياً شديداً.

فمن لم يعذب شيطانه في هذه الدار بذكر الله تعالى وتوحيده واستغفاره وطاعته، عذبه شيطانه في الآخرة بعذاب النار، فلا بُدَّ لكل أحدٍ أن يُعَذَّبَ شيطانه أو يُعَذِّبَهُ شيطانه.

وتأمل كيف جاء بناء الوسواس مكرراً لتكريره الوسوسة الواحدة مراراً، حتى يعزم عليها العبد، وجاء بناء «الخناس» على وزن «الفَعَال» الذي يتكرَّر منه نوع الفعل؛ لأنه كلما ذكر الله انخنس، ثم إذا غفل العبد عاوده بالوسوسة، فجاء بناء اللفظين مطابقاً لمعنييهما.

فصل

وقوله: ﴿الَّذِي يُوسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ ﴿٥٤﴾ صفةٌ ثالثة للشيطان، فذكر وسوسته أولاً، ثم ذكر محلها ثانياً، وأنها في صدور الناس، وقد جعل الله للشيطان دخولاً في جوف العبد، ونفوذاً إلى قلبه وصدره، فهو يجري منه مجرى الدَّم، وقد وُكِّلَ بالعبد فلا يفارقه إلى الممات.

(١) جاء هذا في حديث مرفوع إلى النبي ﷺ من حديث أبي هريرة، أخرجه أحمد: (٥٠٤/١٤ رقم ٨٩٤٠)، وابن أبي الدنيا في «مكايد الشيطان» والحكيم الترمذي - كما في «الجامع الصغير - مع الفيض»: ٣٨٥/٢ - وفي سننه ابن لهيعة وهو ضعيف.

(٢) ليست في (ع).

وفي «الصحيحين»^(١) من حديث الزُّهري، عن علي بن حسين، عن صَفِيَّة بنت حَيٍّ، قالت: «كان رسول الله ﷺ معتكفاً فأتيته أزوره ليلاً، فحدّثته، ثم قمتُ فانقلبتُ، فقام معي ليقبني - وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد - فمرَّ رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعَا، فقال النبي ﷺ: «عَلَى رِسْلِكُمَا إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حَيٍّ»، فقالا: سبحانَ اللهِ يا رسولَ الله! فقال: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ الْإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْدَفَ فِي قَلْبِكُمَا سَوْءًا»- أو قال: «شيئًا» - .

وفي «الصحيح» أيضًا عن أبي سلمة بن عبدالرحمن، عن أبي هريرة، قال: «قال رسول الله ﷺ: «إِذَا نُودِيَ بِالصَّلَاةِ أَذْبَرَ الشَّيْطَانُ وَلَهُ ضُرَاطٌ، فَإِذَا قُضِيَ أَقْبَلَ، فَإِذَا نُوبَ بِهَا أَذْبَرَ، فَإِذَا قُضِيَ أَقْبَلَ حَتَّى يَخْطَرَ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَقَلْبِهِ، فيقول: اذْكُرْ كَذَا اذْكُرْ كَذَا، حَتَّى لَا يَذْرِي أَثْلَاثًا صَلَّى أَمْ أَرْبَعًا، فَإِذَا (ق/١٩٥) لَمْ يَذْرِ أَثْلَاثًا صَلَّى أَمْ أَرْبَعًا سَجَدَ سَجْدَتِي السَّهْوِ»^(٢).

ومن وسوسته: ما ثبت في «الصحيح» عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فيقولُ مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ حَتَّى يَقُولَ: مَنْ خَلَقَ اللهُ؟ فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ وَلْيَتَّهِ»^(٣).

وفي «الصحيح»^(٤) أن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله إن أجدنا ليجد في نفسه ما لأن يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن

(١) أخرجه البخاري رقم (٢٠٣٥)، ومسلم رقم (٢١٧٥).

(٢) أخرجه البخاري رقم (٦٠٨)، ومسلم رقم (٣٨٩).

(٣) أخرجه البخاري رقم (٣٢٧٦)، ومسلم رقم (١٣٤).

(٤) ليس هو في الصحيحين ولا أحدهما، وسنده على شرطهما.

يَتَكَلَّمُ بِهِ، قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَى الْوَسْوَسَةِ»^(١).

ومن وسوسته أيضاً: أَنْ يَشْغَلَ^(٢) القلب بحديثه حتى يُنْسِيَهُ ما يريدُ أَنْ يَفْعَلَهُ، ولهذا يضافُ النسيانُ إليه إضافةً إلى سببه، قال تعالى حكاية عن صاحب موسى إنه قال: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ وَمَا أَنَسَنِتُهُ إِلَّا الشَّيْطَانَ أَنْ أَذْكَرُمُ﴾ [الكهف: ٦٣].

وتأملُ حكمةَ القرآن الكريم وجلالتهُ كيف أوقع الاستعاذة من شرِّ الشيطان الموصوف بأنه الوسواس الخناس، الذي يوسوسُ في صدور الناس، ولم يقل: من شرِّ وسوسته؛ لتعم الاستعاذة شره جميعه، فإن قوله: ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ﴾ [الناس: ٤] يعم كلَّ شره، ووصفه بأعظم صفاته وأشدّها شراً، وأقواها تأثيراً، وأعمّها فساداً، وهي الوسوسة التي هي مبادئ الإرادة، فإن القلب يكون فارغاً من الشر والمعصية، فيوسوسُ إليه، ويُحْطِرُ الذنبَ بباله، فيصوره لنفسه ويُمَنِّيهِ، ويُشْهِيهِ فيصير شهوةً، ويُرِيئُهَا له ويَحْسِنُهَا ويُحَيِّلُهَا له في خيالٍ تميلُ نفسه إليه، فيصيرُ إرادةً ثم لا يزالُ يُمَثِّلُ ويُحَيِّلُ، ويُمَنِّي ويُشْهِي، ويُنْسِي علمه بضررها، ويَطْوِي عنه سوءَ عاقبتها، فيحوّلُ بينه وبين مطالعته، فلا يرى إلا صورة المعصية والتذاهة (ظ/١٤٥ب) بها فقط وينسى ما وراء ذلك، فتصير الإرادة عزيمةً جازمةً، فيشتدُّ الحرصُ عليها من القلب، فيبعثُ الجنودَ في الطَّلَبِ، فيبعثُ الشيطانَ معهم مددًا لهم وعونًا، فإن فتروا حرّكهم، وإن ونّوا^(٣) أزعجهم، كما قال تعالى:

(١) أخرجه أحمد: (١٠/٤ رقم ٢٠٩٧)، وأبو داود رقم (٥١١٢)، وابن حبان «الإحسان»: (١/٣٦٠) وغيرهم من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما -.

(٢) (ع): «يشغل».

(٣) أي: ضعفوا.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْذُهُمْ وَأُذَوْنَهُمْ ﴾ [مريم: ٨٣] أي :
تُزَعِّجُهُمْ إِلَى الْمَعَاصِي إِزْعَاجًا، كُلَّمَا فَتَرُوا أَوْ وَنُوا أَزَعَجْتَهُمُ الشَّيَاطِينُ،
وَأَزَتْهُمْ وَأَثَرْتَهُمْ، فَلَا تَزَالُ بِالْعَبْدِ تَقْوُدُهُ إِلَى الذَّنْبِ وَتَنْظُمُ شَمْلِ
الاجتماع بِالطَّفِّ حَيْلَةً، وَأَتَمُّ مَكِيدَةٍ. قَدْ رَضِيَ لِنَفْسِهِ بِالْقِيَادَةِ لِفَجْرَةِ
بَنِي آدَمَ، وَهُوَ الَّذِي اسْتَكْبَرَ وَأَبَى أَنْ يَسْجُدَ لَأَيُّهُمْ. فَلَا بِتِلْكَ التَّخَوُّةِ
وَالكِبَرِ^(١)، وَلَا بِرِضَاهِ أَنْ يَصِيرَ قَوَادًا لِكُلِّ مَنْ عَصَى اللَّهَ! كَمَا قَالَ
بَعْضُهُمْ^(٢):

عَجِبْتُ مِنْ إِبْلِيسَ فِي تَيْهِهِ وَقَبِحَ مَا أَظْهَرَ مِنْ (ق/١٩٥ب) نَخْوَتِهِ
تَاءَ عَلَى آدَمَ فِي سَجْدَةٍ وَصَارَ قَوَادًا لِذُرِّيَّتِهِ
فَأَصْلُ كُلِّ مَعْصِيَةٍ وَبَلَاءٍ إِنَّمَا هُوَ الْوَسْوَسَةُ، فَلِهَذَا وَصَفَهُ بِهَا
لِتَكُونَ الْإِسْتِعَاذَةُ مِنْ شَرِّهَا أَهَمُّ مِنْ كُلِّ مُسْتِعَاذٍ مِنْهُ، وَإِلَّا فَشَرُّهُ بَغَيْرِ
الْوَسْوَسَةِ حَاصِلٌ أَيْضًا.

فَمِنْ شَرِّهِ: أَنَّهُ لَصٌّ سَارِقٌ لِأَمْوَالِ النَّاسِ، فَكُلُّ طَعَامٍ أَوْ شَرَابٍ
لَمْ يَذَكَرِ اسْمُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ، فَلَهُ فِيهِ حِطٌّ بِالسَّرْقَةِ وَالْحِطْفِ، وَكَذَلِكَ
بَيْتٌ فِي الْبَيْتِ إِذَا لَمْ يَذَكَرْ فِيهِ اسْمُ اللَّهِ تَعَالَى، فَيَأْكُلُ طَعَامَ الْإِنْسِ
بَغَيْرِ إِذْنِهِمْ، وَيَبِيتُ فِي بَيْتِهِمْ بَغَيْرِ أَمْرِهِمْ، فَيَدْخُلُ سَارِقًا وَيُخْرِجُ
مُغَيَّرًا. وَيَدُلُّ عَلَى عَوْرَاتِهِمْ، فَيَأْمُرُ الْعَبْدَ بِالْمَعْصِيَةِ، ثُمَّ يَلْقَى فِي
قُلُوبِ النَّاسِ^(٣) يَقْظَةً وَمَنَامًا: أَنَّهُ فَعَلَ كَذَا وَكَذَا.

وَمِنْ هَذَا: أَنَّ الْعَبْدَ يَفْعَلُ الذَّنْبَ لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ،

(١) «والكبر» ليست في (ظ و د).

(٢) أنشدهما الجاحظ في «البيان والتبيين»: (١٥٢/٣) بلا نسبة، مع اختلاف يسير.

(٣) (ظ و د): «أعدائه».

فيصبحُ والناسُ يتحدثون به، وما ذاك إلا أن الشيطانَ زَيَّنَهُ له، وألقاه في قلبه، ثم وسوس إلى الناس بما فعل، وألقاه إليهم، فأوقعه في الذنب، ثم فضحه به، فالرَّبُّ تعالى يستره، والشيطانُ^(١) يَجْهَدُ في كشف ستره وفضيحته^(٢)، فيغترُّ العبدُ ويقول: هذا ذنبٌ لم يره إلا اللهُ تعالى، ولم يشعر بأنَّ عدوَّهُ ساعٍ في إذاعته وفضيحته، وقلَّ من يتفطنُ^(٣) من الناس لهذه الدقيقة.

ومن شره: أنه إذا نام العبدُ عقد على رأسه عُقْدًا تمنعه من اليقظة، كما في «صحيح البخاري»^(٤) عن سعيد بن المسيَّب، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلَاثَ عُقَدٍ، يَضْرِبُ عَلَى كُلِّ عُقْدَةٍ مَكَانَهَا عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارْقُدْ، فَإِنِ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللَّهَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنِ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنِ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقْدُهُ كُلُّهَا فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ، وَإِلَّا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسَلَانَ».

ومن شره: أنه يبولُ في أذن العبد حتى ينام إلى الصباح، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه ذكِرَ عنده رجل نام ليلة حتى أصبح، قال: «ذَلِكَ رَجُلٌ بَالَ الشَّيْطَانُ فِي أُذُنَيْهِ، أَوْ قَالَ: فِي أُذُنِهِ» رواه البخاري^(٥).

ومن شره: أنه قد قعد لابن آدم بطرق الخير كلها، فما من طريق من طرق الخير إلا والشيطانُ مُرْصِدٌ عليه، يمنعه بجَهْدِهِ أن يسلكه،

(١) من قوله: «زينه له...» إلى هنا ساقط من (ظ ود).

(٢) ليست في (ع).

(٣) (ع): «ينظر».

(٤) رقم (١١٤٢)، وكذلك أخرجه مسلم رقم (٧٧٦).

(٥) رقم (١١٤٤)، وكذلك أخرجه مسلم رقم (٧٧٤).

فإن خالفه وسلكه تَبَطَّهُ فيه وِعَوَّقَهُ، وشوَّشَ عليه بالمُعَارِضَاتِ والقَوَاطِعِ،
فإن عَمِلَهُ وفرغ منه، قَيَّضَ له ما يُبْطِلُ أثرَهُ وَيَرُدُّهُ عَلَى حَافِرَتِهِ.

(ق/١١٩٦) ويكفي من شرِّه: أنه أقسم بالله ليقعدنَّ لِبَنِي آدَمَ صِرَاطَهُ
المستقيم، وأقسم لِيَأْتِيَهُمْ من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيِّمَانِهِمْ
وعن شمائلهم، ولقد بلغ شرُّه أن أعملَ المكيِّدةَ، وبالغ في الحيلةَ،
حتى أخرجَ آدَمَ من الجنةَ، ثم لم يكفِه ذلك حتى استقطعَ من أولاده
شرطةَ للنارِ من كلِّ ألفٍ تسع مئة وتسعة وتسعين^(١)، ثم لم يكفِه
ذلك حتى أعملَ الحيلةَ في إبطالِ دعوةِ الله من الأرضِ، وقصد أن
تكون الدعوةُ له، وأن يُعبدَ من دون الله فهو ساع بأقصى جهده على
إطفاءِ نورِ الله وإبطالِ دعوته، وإقامةِ دعوةِ الكُفْرِ والشركِ، ومحوِ
التوحيدِ وأعلامه من الأرضِ.

ويكفي من شرِّه: أنه تصدَّى لإبراهيمَ خليلِ الرحمنِ حتى رماه
قومُهُ (ظ/١١٤٦) بالمنجنيقِ في النَّارِ، فردَّ اللهُ تعالى كيدهُ عليه، وجعل
النَّارَ على خليله بَرْدًا وسلامًا، وتصدَّى للمسيحِ ﷺ حتى أراد اليهود
قتله وصلبه، فردَّ اللهُ كيدهُ، وصانَ المسيحَ ورفعَه إليه، وتصدَّى لذكرِيا
ويحيى حتى قُتِلَا، واستثار^(٢) فرعونَ حتى زَيَّنَ له الفسادَ العظيمَ في
الأرضِ ودعوى أنه ربُّهم الأعلى، وتصدَّى للنبي ﷺ وظاهر الكفار
على قتله بجهده، والله تعالى يكتبه ويردُّه خاسئًا، وتفلَّتَ على النبي
ﷺ بشهابٍ من نارٍ يُريدُ أن يرميهُ به وهو في الصلاة، فجعل النبي ﷺ

(١) في جميع الأصول: «تسعون».

والحديث في هذا المعنى أخرجه البخاري رقم (٣٣٤٨)، ومسلم رقم

(٢٢٢).

(٢) (ع): «واستتاب»، و(ق): «واستبان»، ولعل الصواب ما أثبت.

يقول: «أَلْعَنَكَ بِلَعْنَةِ اللَّهِ»^(١)، وأعان اليهود على سحرهم للنبي ﷺ.

فإذا كان هذا شأنه وهَمَّتَهُ في الشَّرِّ، فكيف الخلاصُ منه إلا بمعونة الله وتأييده وإعاضته! ولا يمكن حصرُ أجناسِ شرِّه فضلاً عن آحادها، إذ كلُّ شرٍّ في العالم فهو السَّبَبُ فيه، ولكن ينحصرُ شرُّه في ستة أجناس، لا يزالُ بابن آدم حتى ينالَ منه واحداً منها أو أكثر:

* الشرُّ الأول: شرُّ الكفر والشرك ومعاداة الله ورسوله، فإذا ظفر بذلك من ابن آدم برَدَ أنينُهُ، واستراح من تعبهِ معه، وهو أوَّلُ ما يُريده من العبد، فلا يزالُ به حتى ينالَهُ منه، فإذا نال ذلك منه صَيَّرَهُ من جنده وعسكره، واستنابه على أمثاله وأشكاله، فصار من دعاة إبليسِ ونُوَّابه.

* فإن يَسَّ منه من ذلك، وكان ممن سبق له الإسلامُ في بطن أمه، نقله إلى المرتبة الثانية من الشر، وهي البدعة، وهي أحبُّ (ق/١٩٦ب) إليه من الفسوق والمعاصي؛ لأن ضررَها في نفس الدين وهو ضرر متعدّد، وهي ذنبٌ لا يتابُ منه، وهي مخالفةٌ لدعوة الرُّسُل، ودعاء إلى خلاف ما جاءوا به، وهي باب الكفر والشرك، فإذا نال منه البدعة وجعله من أهلها بقيَ أيضاً نائِبَهُ وداعياً من دعائِهِ.

* فإن أعجزه من هذه المرتبة، وكان العبدُ ممن سَبَقَتْ له من الله موهبةُ السُنَّةِ ومعاداة أهل البِدَع والضلال، نقله إلى المرتبة الثالثة من الشَّرِّ، وهي الكبائرُ على اختلاف أنواعها، فهو أشدُّ^(٢) حرصاً على أن يوقعه فيها، ولاسيما إن كان عالماً متبوعاً، فهو حريصٌ على ذلك لينفِرَ الناسُ عنه، ثم يشيعُ من ذنوبه ومعاصيه في الناس ويستنيبُ

(١) أخرجه مسلم رقم (٥٤٢) من حديث أبي الدرداء - رضي الله عنه - .

(٢) (ع و ق): «أشد شيء...» .

منهم من يشيعها ويذيعها تديُّنا وتقربنا بزعمه إلى الله تعالى، وهو نائب إبليس ولا يشعر، فإن الذين يُحبُّون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم، هذا إذا أحبُّوا إشاعتها وإذاعتها^(١)، فكيف إذا تولَّوا هم إشاعتها وإذاعتها [لا] نصيحة^(٢) منهم، ولكن طاعة^(٣) لإبليس ونيابة عنه؟! كل ذلك لينقِرَّ الناس عنه، وعن الانتفاع به، وذنوب هذا ولو بلغت عنان السماء أهونُ عند الله من ذنوب هؤلاء، فإنها ظلمٌ منه لنفسه، إذا استغفرَ الله وتابَ إليه قبل الله توبته، وبدلَ سيئاته حسنات، وأما ذنوب أولئك فظلم للمؤمنين وتتبع لعورتهم وقصدٌ لفضيحتهم، والله - سبحانه - بالمرصاد لا تخفى عليه كمانُ الصدور ودسائس النفوس.

* فإن أعجزَ الشيطانَ عن هذه المرتبة، نقله إلى المرتبة الرابعة وهي: الصَّغائر التي إذا اجتمعت فربما أهلكت صاحبها، كما قال النبي ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ مَثَلُ قَوْمٍ نَزَلُوا بِقَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ...»^(٤)، وذكر حديثاً معناه: أن كل واحدٍ منهم جاء بعود

(١) من (ع) فقط.

(٢) زيادة يستقيم بها النص.

(٣) ملحقة في هامش (ق).

(٤) أخرجه أحمد: (٣٣١/٥) وغيره من حديث سهل بن سعد - رضي الله عنه - ولفظه: «إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، كَقَوْمٍ نَزَلُوا فِي بَطْنٍ وَإِدْفَاءً ذَا بَعُودٍ وَجَاءَ ذَا بَعُودٍ حَتَّى انْضَجُوا خَبِزَتَهُمْ، وَإِنْ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ مَتَى يُؤْخَذُ بِهَا صَاحِبُهَا تُهْلِكُهُ».

قال الحافظ في «الفتح»: (٣٣٧/١١): «إسناده حسن».

وله شاهد من حديث ابن مسعود، أخرجه أحمد: (٣٦٧/٦) رقم ٣٨١٨.

وفي سنده ضعف، ولفظه أقرب إلى ما ذكره المؤلف.

حَطَبَ حَتَّى أَوْقَدُوا نَارًا عَظِيمَةً فَطَبَخُوا وَاشْتَوَوْا، وَلَا يَزَالُ يُسَهَّلُ عَلَيْهِ
أَمْرَ الصَّغَائِرِ حَتَّى يَسْتَهِينَ بِهَا، فَيَكُونُ صَاحِبُ الْكَبِيرَةِ الْخَائِفُ مِنْهَا
أَحْسَنَ حَالًا مِنْهُ .

* فَإِنْ أَعْجَزَهُ الْعَبْدُ مِنْ هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ، نَقَلَهُ إِلَى الْمَرْتَبَةِ الْخَامِسَةِ،
(ظ/١٤٦ب) وَهِيَ إِشْغَالُهُ بِالْمُبَاحَاتِ الَّتِي لَا ثَوَابَ فِيهَا وَلَا عِقَابَ، بَلْ
عَقَابَهَا فَوَاتٌ^(١) الثَّوَابِ الَّذِي ضَاعَ عَلَيْهِ بِاشْتِغَالِهِ بِهَا .

* فَإِنْ أَعْجَزَهُ الْعَبْدُ مِنْ هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ (ق/١٩٧) وَكَانَ حَافِظًا لَوَقْتِهِ
شَاحِيحًا بِهِ، يَعْلَمُ مَقْدَارَ أَنْفَاسِهِ وَانْقِطَاعَهَا وَمَا يَقَابِلُهَا مِنَ النِّعَمِ وَالْعَذَابِ،
نَقَلَهُ إِلَى الْمَرْتَبَةِ السَّادِسَةِ، وَهُوَ: أَنْ يَشْغَلَهُ بِالْعَمَلِ الْمَفْضُولِ عَمَّا هُوَ
أَفْضَلُ مِنْهُ، لِيُزِيحَ عَنْهُ الْفَضِيلَةَ^(٢) وَيَفُوتَهُ ثَوَابُ الْعَمَلِ الْفَاضِلِ، فَيَأْمُرُهُ
بِفِعْلِ الْخَيْرِ الْمَفْضُولِ، وَيَحْضُرُهُ عَلَيْهِ، وَيَحْسِنُ لَهُ، إِذَا تَضَمَّنَ تَرْكُ
مَا هُوَ أَفْضَلُ وَأَعْلَى مِنْهُ، وَقَلَّ مِنْ يَتَّبَعُهُ لِهَذَا مِنَ النَّاسِ، فَإِنَّهُ إِذَا رَأَى
فِيهِ دَاعِيًا قَوِيًّا وَمَحْرُكًا إِلَى نَوْعٍ مِنَ الطَّاعَةِ لَا يَشْكُ أَنَّهُ طَاعَةٌ وَقَرِيبَةٌ،
فَإِنَّهُ لَا يَكَادُ يَقُولُ: إِنَّ هَذَا الدَّاعِيَ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَأْمُرُ
بِخَيْرٍ، وَيَرَى أَنَّ هَذَا خَيْرٌ، فَيَقُولُ: هَذَا الدَّاعِيَ مِنَ اللَّهِ، وَهُوَ مَعْدُورٌ،
وَلَمْ يَصِلْ عِلْمُهُ إِلَى أَنَّ الشَّيْطَانَ يَأْمُرُهُ بِسَبْعِينَ بَابًا مِنْ أَبْوَابِ الْخَيْرِ،
إِمَّا لِيَتَوَصَّلَ بِهَا إِلَى بَابٍ وَاحِدٍ مِنَ الشَّرِّ، وَإِمَّا لِيُفَوِّتَ بِهَا خَيْرًا أَعْظَمَ
مِنْ تِلْكَ السَّبْعِينَ بَابًا وَأَجَلًّا وَأَفْضَلَ .

وهذا لا يتوصل إلى معرفته إلا بنور من الله يقذفه في قلب العبد
يكون سببه تجريد متابعة الرسول ﷺ وشدة عنايته بمراتب الأعمال

(١) (ظ و د): «عاقبتها فوت» .

(٢) (ع و ق): «عليه» وتحتل قراءة «ليزح»: «ليريح» .

عند الله وأحبها إليه وأرضاها له، وأنفعها للعبد، وأعمها نصيحةً لله تعالى ولرسوله ولكتابه ولعباده المؤمنين خاصتهم وعامتهم، ولا يعرف هذا إلا مَنْ كان من ورثة الرسول ﷺ ونوابه في الأمة وخلفائه في الأرض، وأكثر الخلق محجوبون عن ذلك فلا يخطر بقلوبهم، والله تعالى يمن بفضله على من يشاء من عباده.

* فإذا أعجزه العبدُ من هذه المراتب السّتِّ وأعيأ عليه سلطَ عليه حزبه من الإنس والجن بأنواع الأذى والتكفير له والتضليل والتبديع والتحذير منه، وقصد إخماله وإطفائه لِيُشَوِّشَ عليه قلبه ويشغل بحربه فكره، وليمنع الناسَ من الانتفاع به، فيبقى سعيه في تسليط المُبْطِلِينَ من شياطين الإنس والجن عليه، لا يَقْتَرُ ولا يَتِي، فحينئذٍ يلبسُ المؤمن لأمة الحرب ولا يضعها عنه إلى الموت، ومتى وضعها أُسِرَ أو أصيب، فلا يزال في جهاد حتى يلقى الله.

فتأمل هذا الفصلَ وتدبّرْ موقِعَهُ^(١) وعظيمَ منفعته، واجعله ميزانًا لك تزنُ به الناسَ وتزنُ (ق/١٩٧ب) به الأعمال، فإنه يُطْلَعُكَ على حقائق الوجود ومراتب الخلق، والله المستعان، وعليه التكلانُ، ولو لم يكن في هذا التعليق إلا هذا الفصلُ لكان نافعًا لمن تدبّرهُ ووعاه.

فصل

وتأمل السر في قوله تعالى: ﴿يُوسِّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾، ولم يقل: في قلوبهم، والصدر هو ساحة القلب^(٢) وبيته، فمته تدخل الوارداتُ إليه، فتجتمعُ في الصدر ثم تلجُ في القلب، فهو بمنزلة

(١) (ظ و د): «موضعه».

(٢) زيادة في (ظ و د): «فهو بمنزلة الدهليز».

الدَّهْلِيْزِ لَهُ، وَمِنَ الْقَلْبِ تَخْرُجُ الْأَوَامِرُ وَالْإِرَادَاتُ إِلَى الصَّدْرِ ثُمَّ تَتَفَرَّقُ عَلَى الْجُنُودِ.

وَمِنْ فَهْمٍ هَذَا فَهَمَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤] فَالشَّيْطَانُ يَدْخُلُ إِلَى سَاحَةِ الْقَلْبِ وَبَيْتِهِ، فَيُلْقِي مَا يَرِيدُ إِقْضَاءَهُ فِي الْقَلْبِ، فَهُوَ مُوسُوسٌ فِي الصَّدْرِ، وَوَسْوَسَتُهُ^(١) وَأَصْلُهُ إِلَى الْقَلْبِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَوَسَّوْا إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾ [طه: ١٢٠] وَلَمْ يَقُلْ: فِيهِ؛ لِأَنَّ الْمَعْنَى: أَنَّهُ أَلْقَى إِلَيْهِ ذَلِكَ وَأَوْصَلَهُ إِلَيْهِ، فَدَخَلَ فِي قَلْبِهِ.

فصل

وقوله تعالى: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾^(٢) اختلف المفسرون في هذا الجار والمجرور: بم يتعلق؟.

فقال الفراء^(٢) وجماعة: هو بيان للناس الموسوس في صدورهم، والمعنى: يُوسوس في صدور الناس الذين هم من الجن والإنس، أي الموسوس في صدورهم قسمان: إنس وجن.

فالموسوس يُوسوس للجنِّي (ظ/١٤٧أ) كما يوسوس للإنسي، وعلى هذا القول فيكون «من الجنة والناس»: نصباً على الحال؛ لأنه مجرورٌ بعد معرفة على قول البصريين، وعلى قول الكوفيين نصباً بالخروج من المعرفة، هذه عبارتهم، ومعناها: أنه لما لم يصلح أن يكون نعتاً للمعرفة انقطع عنها، فكان موضعه نصباً، والبصريون

(١) (ظ و د): «في الصدور وسوسة».

(٢) في «معاني القرآن»: (٣/٣٠٢).

يقدرونه حالاً، أي: كائنين من الجنة والناس، وهذا القول ضعيف جداً لوجوه:

أحدها: أنه لم يَقم دليلٌ على أن الجنِّيَّ يوسوسُ في صدور الجنِّ، ويدخلُ فيه كما يدخل في الإنسي، ويجري منه مجراه من الإنسي، فأئني دليل يدلُّ على هذا حتى يصحَّ حملُ الآية عليه؟.

الثاني: أنه فاسدٌ من جهة اللفظ أيضاً، فإنه قال: (الذي يوسوسُ في صدور الناس)، فكيف يبينُ الناس بالناس؟ فإن معنى الكلام على قوله: يوسوسُ في صدور الناس^(١) الذين هم - أو كائنين - من الجنة والناس، أفيجوزُ أن يقال: في صدور الناس الذين هم من الناس وغيرهم؟ هذا ما لا يجوزُ، ولا هو استعمالٌ فصيحٌ!.

الثالث: أن يكونَ قد قسمَ الناسَ إلى قسمين: جنَّة وناس، وهذا غيرُ صحيح، فإن الشيء لا يكونُ قسيمَ نفسه.

الرابع: أن الجنة لا يطلقُ عليهم اسمُ الناس بوجه، (ق/١٩٨) لا أصلاً ولا اشتقاقاً ولا استعمالاً، ولفظهما يأبى ذلك، فإن الجنَّ إنما سُمُّوا جنًّا من الاجتنان، وهو الاستتارُ، فهم مستترون عن أعين البشر، فسُمُّوا جنًّا لذلك، من قولهم: جنُّ الليل وأجنُّه: إذا ستره، وأجنَّ الميِّت: إذا ستره في الأرض. قال:

ولا تبك ميئاً بعد ميئ أجنُّه عليّ وعباسٍ وآل أبي بكرٍ

يريد النبي ﷺ.

ومنه: الجنينُ لاستتاره في بطن أمه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي

(١) من قوله: «فكيف يبين...» إلى هنا ساقط من (ق).

بَطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴿ [النجم: ٣٢] ومنه: المِجَنُّ لاستتار المِحَارِبِ به من سلاح خصمه، ومنه: العِجَنَةُ لاستتار داخلها بالأشجار، ومنه: العِجَنَةُ بالضم: لِمَا يَبْقِي الإنسانَ من السُّهَامِ والسَّلَاحِ، ومنه: المجنون لاستتار عقله.

وأما «الناس» فبينه وبين الإنس مناسبة في اللفظ والمعنى، وبينهما اشتقاق أوسط، وهو: عَقْدٌ^(١) تقاليب الكلمة على معنى واحد^(٢)، والإنس والإنسان مشتق من الإيناس وهو الرؤية والإحساس، ومنه قوله: ﴿ءَأَنسُكَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾ [القصص: ٢٩] أي: رآها، ومنه: ﴿فَإِنَّ أَسْمَ مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ [النساء: ٦] أي: أحسستموه ورأيتموه، فالإنسان سُمِّيَ إنسانًا لأنه يُؤنَسُ أي: يُرَى بالعين.

والناس فيه قولان:

أحدهما: أنه مقلوب من أنس وهو بعيد، والأصل عدم القلب.

والثاني: - وهو الصحيح - أنه من النَّوَسِ وهو الحركة المتتابعة، فسُمِّيَ النَّاسُ ناسًا للحركة الظاهرة والباطنة، كما يسمَّى الرجلُ: حارثًا وهمامًا، وهما أصدقُ الأسماء كما قال النبي ﷺ^(٣)؛ لأن كلَّ أحدٍ له همٌّ وإرادةٌ هي مبدأ، وحرثٌ وعملٌ هو مُنتهى، فكلُّ أحدٍ حارثٌ وهمامٌ، والحرثُ والهمُّ، حركتا الظاهر والباطن، وهو حقيقة

(١) (ظ و د): «عند».

(٢) ويسميه ابن جني الاشتقاق الأكبر، انظر «الخصائص»: (١٣٤/٢ - ١٣٩).

(٣) فيما أخرجه أحمد: (٣٧٧/٣١ رقم ١٩٠٣٢)، وأبو داود رقم (٤٩٥٠)، والبخاري في «الأدب المفرد»: (ص/٢٤٣)، والنسائي: (٢١٨/٦ - ٢١٩) وغيرهم من حديث أبي وهب الجُشَمي - رضي الله عنه - وضعفه أبو حاتم في «العلل»: (٣١٢/٢ - ٣١٣).

التَّوَسُّ، وأصل نَاسٍ: (تَوَسَّ) تحركت الواو وقبلها فتحة فصارت أَلْفًا، هذان هما القولان المشهوران في اشتقاق «الناس».

وأما قول بعضهم: إنه من النَّسيان، وسُمِّي الإنسان إنسانًا لنسيانه، وكذلك الناس سُمُّوا ناسًا لنسيانهم؛ فليس هذا القول بشيء! وأين النسيان الذي مادته (ن س ي) إلى الناس الذي مادته (ن و س)؟ وكذلك أين هو من الأُنس الذي مادته (أ ن س)؟ وأما إنسانٌ فهو «فِعْلَانٌ» من (أ ن س)، والألف والنون في آخره زائدتان، لا يجوزُ فيه غيرُ هذا أَلْبَتَّةَ، إذ ليس في كلامهم أُنْسَنٌ^(١) حتى يكونَ إنْسَانٌ إفعالاً منه، ولا يجوزُ أن يكون الألفُ والنونُ في أوله زائدتين، إذ ليس في كلامهم «انْفَعَلٌ» فيتعيَّن أنه «فِعْلَانٌ» (ظ/١٤٧ب) من الإنس، ولو كان مشتقًا من (نَسِي) (ق/١٩٨ب) لكان نَسِيَانًا لا إنْسَانًا.

فإن قلت: فهلاً جعلته «إفعلالاً»، وأصله: إنْسِيَانٌ كـ «ليلةٍ إضْحِيَانٍ»، ثم حذفت الياء تخفيفًا فصار إنسانًا؟

قلت: يأبى ذلك عدمُ «إفعلال» في كلامهم، وحذفت الياء بغير سبب، ودعوى ما لا نظير له، وذلك كله فاسد، على أن (الناس) قد قيل: إن أصله (الأُناسُ) فحذفت الهمزة، فقيل: (النَّاسُ)، واستدل بقول الشاعر^(٢):

إِنَّ الْمَنَّايَا يَطَّلِعُ مِنْ عَلَى الْأُنَّاسِ الْعَافِلِينَا
ولا ريب أن (أُنَّاسًا) فُعَالٌ، ولا يجوزُ فيه غير ذلك أَلْبَتَّةَ، فإن

(١) (ق و ظ ود): «أنس»

(٢) هو: ذو جدن الحميري، انظر: «الخزانة»: (٢/٢٨٠)، و«الخصائص»: (٣/١٥١) وفيها: «الأميننا».

كان أصلُ ناسِ أناسًا^(١)، فهو أقوى الأدلة على أنه من (أنس) ويكون الناسُ كالإنسان سواء في الاشتقاق، ويكون وزن ناس على هذا القول: (عال)؛ لأن المحذوفَ فاوهُ، وعلى القول الأول يكون وزنه: «فَعْلٌ»؛ لأنه من النَّوْسِ، وعلى القول الضعيف يكون وزنه «فَلَعٌ»؛ لأنه من (نَسِي)، فقلبت لامه إلى موضع العين فصار ناسًا ووزنه «فَلَعًا».

والمقصودُ أن الناسَ اسم لبني آدم، فلا يدخلُ الجنُّ في مسمَّاهم، فلا يصحُّ أن يكونَ ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾^(٦) بيانًا لقوله: ﴿فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾^(٦) وهذا واضحٌ لا خفاءَ به.

فإن قيل: لا محذورَ في ذلك، فقد أُطلقَ على الجن اسم الرجال، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الجن: ٦] فإذا أُطلقَ عليهم اسم الرجال، لم يمتنع أن يُطلقَ عليهم اسم الناس.

قلت: هذا هو الذي غرَّ من قال: إن الناس اسم للجن والإنس في هذه الآية. وجواب ذلك: أن اسم الرجال إنما وقع عليهم وقوعًا مقيَّدًا في مقابلة ذكر الرجال من الإنس، ولا يلزم من هذا أن يقع اسمُ الناس والرجال عليهم مطلقًا، وأنت إذا قلت: «إنسانٌ من حجارة»، أو «رجلٌ من خشب»، ونحو ذلك، لم يلزم من ذلك وقوع اسم الرجل والإنسان عند الإطلاق على الحجر والخشب.

وأيضًا: فلا يلزم من إطلاق اسم الرجل على الجنِّي أن يُطلقَ عليه اسم الناس، وذلك لأن الناسَ والجنَّةَ متقابلان، وكذلك الإنس

(١) (ع وظ ود): «إنسانا».

والجن، فالله تعالى يقابل بين اللفظين، كقوله: ﴿يَمَعَشَرِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ [الرحمن: ٣٣] وهو كثير في القرآن، وكذلك قوله: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّكَاسِ﴾^(١) [الناس: ٦] يقتضي أنهما متقابلان، فلا يدخل أحدهما في الآخر، بخلاف الرجال والجنّ فإنهما لم يستعملا متقابلين، فلا يقال: الجنّ والرجال، كما يقال: الجن والانس، وحينئذ فالآية أُبِينُ حُجَّةٌ عليهم في أن الجنّ لا يدخلون في لفظ الناس؛ لأنه قابل بين الجنة (ق/١٩٩) والناس، فعلم أن أحدهما لا يدخل في الآخر، فالصواب القول الثاني، وهو أن قوله: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّكَاسِ﴾ بيان للذي يوسوس، وأنهما نوعان: إنسٌ وجنٌّ، فالجنّي يوسوس في صدور الإنس، والإنسي أيضًا يوسوس إلى الإنسي.

فالموسوس نوعان: إنسٌ وجنٌّ، فإن الوسوسة هي الإلقاء الخفي في القلب، وهذا مشترك بين الجن والإنس، وإن كان إلقاء الإنسي ووسوسته إنما هي بواسطة الأذن، والجنّي لا يحتاج إلى تلك الوسوسة؛ لأنه يدخل في ابن آدم ويجري منه مجرى الدم.

على أن الجنّي قد يتمثل له ويوسوس إليه في أذنه كالإنسي، كما في «البخاري» عن عُرْوَةَ، عن عائشة، عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تُحَدِّثُ فِي الْعَنَانِ، - وَالْعَنَانُ: الْعَمَامُ - بِالْأَمْرِ يَكُونُ فِي الْأَرْضِ، فَتَسْتَمِعُ الشَّيَاطِينُ الْكَلِمَةَ فَتَقْرُؤُهَا فِي أُذُنِ الْكَاهِنِ كَمَا تَقْرُؤُ الْقَارُورَةَ فَيَزِيدُونَ مَعَهَا مِائَةَ كَذِبَةٍ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ»^(٢) فهذه وسوسة وإلقاء من الشيطان بواسطة الأذن.

(١) من قوله: «وهو كثير...» إلى هنا ساقط من (ع).

(٢) أخرجه البخاري رقم (٣٢١٠ و ٣٢٨٨)، ومسلم رقم (٢٢٢٨). وقوله: «من

عند أنفسهم» ليست في (ق وع).

ونظير اشتراكهما في هذه الوسوسة اشتراكهما في الوحي الشيطاني (ظ/١٤٨)، قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام: ١١٢]. فالشيطان يوحى إلى الإنسي باطله، ويوحى الإنسي إلى إنسي مثله، فشياطين الإنس والجن^(١) تشترك في الوحي الشيطاني وتشترك في الوسوسة، وعلى هذا فتزول تلك الإشكالات والتعسفات التي ارتكبتها أصحاب القول الأول.

وتدل الآية على الاستعاذة من شرّ نوعي الشياطين: شياطين الإنس والجن. وعلى القول الأول^(٢) إنما تكون الاستعاذة من شرّ شياطين الجن فقط، فتأمله فإنه بدیعٌ جدًّا.

فهذا ما منّ الله به من الكلام على بعض أسرار هاتين السورتين، وله الحمد والمنة، وعسى أن يساعد بتفسير على هذا التّمط، فما ذلك على الله بعزیز، والحمد لله رب العالمين، ونختم الكلام على السورتين بذكر:

قاعدة نافعة

فيما يعتصم به العبد من الشيطان ويستدفع به شره ويحترز به منه وذلك في عشرة أسباب:

أحدها: الاستعاذة بالله من الشيطان، قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [فصلت: ٣٦]،

(١) من قوله: «يوحى بعضهم...» إلى هنا ساقط من (ظ ود).

(٢) من قوله: «وتدل الآية...» إلى هنا ساقط من (ظ ود).

وفي موضع آخر: ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾^(١) [الأعراف: ٢٠٠]، وقد تقدم أن السمع المراد به ههنا سمع الإجابة لا مجرد السمع العام.

وتأمل سرَّ القرآن الكريم كيف أكَّد الوصفَ (ق/١٩٩ب) بالسميع العليم بذكر صيغة «هو» الدالُّ على تأكيد النسبة واختصاصها، وعرفَ الوصفَ بالألف واللام في سورة (حم) لاقتضاء المقام لهذا التأكيد، وتركه في سورة (الأعراف) لاستغناء المقام عنه، فإن الأمر بالاستعاذة في سورة (حم) وقع بعد الأمر بأشقيِّ الأشياءِ على النفس، وهو مقابلةُ إساءة المسيءِ بالإحسان إليه، وهذا أمرٌ لا يقدرُ عليه إلا الصابرون، ولا يُلقَّاهُ إلا ذو حظٍّ عظيم، كما قال الله تعالى.

والشيطانُ لا يدعُ العبدَ يفعلُ هذا، بل يُريه أن هذا ذلٌّ وعجزٌ، ويسلِّطُ عليه عدوَّهُ، فيدعوه إلى الانتقام ويُرِيته له، فإن عَجَزَ عنه دعاه إلى الإعراض عنه، وأن لا يسيءَ إليه ولا يُحسِنَ، فلا يُؤثر الإحسانُ إلى المسيءِ إلا من خالفه وآثر الله تعالى وما عندهُ على حظه العاجل، فكان المقام مَقام تأكيد وتحريض، فقال فيه: ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾^(٢).

وأما في سورة (الأعراف) فإنه أمره أن يُعرضَ عن الجاهلين، وليس فيها الأمر بمقابلة إساءتهم بالإحسان بل بالإعراض، وهذا سهلٌ على النفوس غير مُستعصِ^(٢) عليها، فليس حرصُ الشيطان وسعيه في دفع هذا كحرصه على دفع المقابلة بالإحسان، فقال: ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ

(١) في (ق) تقدمت هذه الآية على التي قبلها.

(٢) (ق): «مستعصِب».

الشَّيْطَانِ نَزَعٌ فَأَسْتَعِذُ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٦﴾ ، وقد تقدّم (١) ذكرُ الفرق بين هذين الموضوعين، وبين قوله في (حم) المؤمن: ﴿ فَأَسْتَعِذُ بِاللَّهِ إِنَّكُمْ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ ﴿٥٦﴾ [غافر: ٥٦].

وفي «صحيح البخاري» عن عدي بن ثابت، عن سليمان بن صرد قال: كنت جالساً مع النبي ﷺ ورجلان يَسْتَبَان، فأحدهما احمرَّ وجهه وانتفخت أوداجه، فقال النبي ﷺ: «إني لأعلمُ كلمةً لو قالها ذهبَ عنه ما يجدُ، لو قال أعوذُ باللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ذهبَ عنه ما يجدُ» (٢).

الحرز الثاني: قراءة هاتين السورتين، فإن لهما تأثيراً عجيباً في الاستعاذة بالله تعالى من شره ودفعه والتحصن منه، ولهذا قال النبي ﷺ: «ما تَعَوَّذَ الْمُتَعَوِّذُونَ بِمِثْلِهِمَا» (٣)، وقد تقدم أنه كان يتعوذ بهما كل ليلة عند النوم (٤)، وأمر عقبه أن يقرأ بهما دبر كل صلاة (٥).

وتقدم قوله ﷺ: «إِنَّ مَنْ قَرَأَهُمَا مَعَ سُورَةِ الْإِخْلَاصِ ثَلَاثًا حِينَ يُمْسِي وَثَلَاثًا حِينَ يُصْبِحُ كَفَّتَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ» (٦).

الحرز الثالث: قراءة آية الكرسي: ففي (ظ/١٤٨ب) «الصحيح» من حديث محمد بن سيرين، عن أبي هريرة قال: وَكَلَّنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (ق/١٢٠٠) بحفظ زكاة رمضان، فأتى آتٍ فجعل يحثو من الطعام فأخذته

(١) ٧٦٥/٢.

(٢) أخرجه البخاري رقم (٣٢٨٢)، ومسلم رقم (٢٦١٠) من حديث سليمان بن صرد - رضي الله عنه - . وقوله: «الرجيم» من (ق) فقط.

(٣) تقدم ٦٩٩/٢.

(٤) تقدم ٧٠٠/٢.

(٥) تقدم ٦٩٩/٢.

(٦) تقدم ص/٧٠٠. ووقع في (ع): «من كل سوء».

فقلت: لأرْفَعَنَّكَ إلى رسول الله ﷺ فذكر الحديث... فقال: إذا أويتَ إلى فراشِكَ فاقْرَأْ آيَةَ الكرسي، فإنه^(١) لن يزالَ عليك من الله حافظٌ، ولا يقربُكَ شيطانٌ حتى تُصبحَ، فقال النبي ﷺ: «صَدَقَكَ، وَهُوَ كَذُوبٌ، ذَاكَ الشَّيْطَانُ»^(٢).

وسنذكر - إن شاء الله تعالى - السرَّ الذي لأجله كان لهذه الآية العظيمة هذا التأثير العظيم في التحرز من الشيطان واعتصام قارئها بها في كلام مفرد عليها وعلى أسرارها وكنوزها بعون الله تعالى وتأيدته.

الحرز الرابع: قراءة سورة البقرة، ففي الصحيح من حديث سهل، عن أبيه، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، وإنَّ البيتَ الذي تُقرأ فيه البقرة لا يدخله الشيطان»^(٣).

الحرز الخامس: خاتمة سورة البقرة، فقد ثبت في الصحيح من حديث أبي مسعود^(٤) الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قرَأَ الآيتينِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ البقرةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَّتَاهُ»^(٥).

وفي الترمذي عن الثَّعْمَانِ بنِ بَشِيرٍ عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ بِالْفِي عامٍ، أَنْزَلَ مِنْهُ آيَاتِينَ خَتَمَ بِهِمَا سُورَةَ البقرةِ، فَلَا يُقْرَأُ فِي دَارٍ ثَلَاثَ لَيَالٍ فَيَقْرَبَهَا شَيْطَانٌ»^(٦).

(١) من (ق).

(٢) أخرجه البخاري رقم (٢٣١١) معلقاً مجزوماً به.

(٣) أخرجه مسلم رقم (٧٨٠) بنحوه. ووقع في (ظ ود): «من حديث سهل عن عبدالله عن...».

(٤) (ظ و د): «أبي موسى» وهو خطأ.

(٥) أخرجه البخاري رقم (٤٠٠٨)، ومسلم رقم (٨٠٧ و ٨٠٨).

(٦) أخرجه أحمد: (٣٠/٣٦٣ رقم ١٨٤١٤)، والترمذي رقم (٢٨٨٢)، والنسائي =

الحرز السادس: أول سورة (حم) المؤمن إلى قوله تعالى:
﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (٣) مع آية الكرسي: ففي الترمذي من حديث
عبدالرحمن ابن أبي بكر ابن أبي مُلَيْكَةَ^(١)، عن زُرَّارَةَ بن مُصْعَبٍ،
عن أَبِي سَلَمَةَ، عن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قَرَأَ
حَمَّ الْمُؤْمِنِ إِلَى: ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (٣) وَآيَةَ الْكُرْسِيِّ حِينَ يُصْبِحُ
حُفِظَ بِهِمَا حَتَّى يُمْسِيَ، وَمَنْ قَرَأَهُمَا حِينَ يُمْسِي حُفِظَ بِهِمَا حَتَّى
يُصْبِحَ»^(٢). وعبدالرحمن المَلَيْكِيُّ وَإِنْ كَانَ قَدْ تَكَلَّمَ فِيهِ مِنْ قَبْلِ
حِفْظِهِ، فَالْحَدِيثُ لَهُ شَوَاهِدٌ فِي قِرَاءَةِ آيَةِ الْكُرْسِيِّ، وَهُوَ مُحْتَمَلٌ
عَلَى غَرَابَتِهِ.

الحرز السابع: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله
الحمد، وهو على كل شيء قدير» مائة مرة، ففي «الصحاحين»^(٣) من
حديث سُمَيِّ مَوْلَى أَبِي بَكْرٍ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ
ﷺ قَالَ: «مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ
الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ كَانَتْ لَهُ عِدْلَ عَشْرِ
رِقَابٍ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيتَ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا
مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلٍ مِمَّا جَاءَ بِهِ

= في «عمل اليوم والليلة» رقم (٩٦٧)، والحاكم: (٥٦٢/١) وغيرهم.
والحديث صحَّحه ابن حبان والحاكم، وقال الترمذي: «حسن غريب».

(١) (ظ و د): «ابن أبي ليلى»! وهو خطأ.
(٢) أخرجه الترمذي رقم (٢٨٧٩) وقال: «حديث غريب، وقد تكلم بعض أهل
العلم في عبدالرحمن بن أبي بكر المَلَيْكِيِّ مِنْ قَبْلِ حِفْظِهِ...».
ورواه الدارقطني في غرائب مالك - كما في «اللسان»: (٤٤/١) - من حديث
ابن عمر، وقال: هو باطل.

(٣) أخرجه البخاري رقم (٣٢٩٣)، ومسلم رقم (٢٦٩١).

إِلَّا رَجُلٌ^(١) (ق/٢٠٠ب) عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ. فهذا حِرْزٌ عَظِيمٌ النِّفْعِ، جَلِيلُ الْفَائِدَةِ، يَسِيرٌ سَهْلٌ عَلَى مَنْ يَسِرَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ.

الحِرْزُ الثَّامِنُ: - وَهُوَ مِنْ أَنْفَعِ الْحُرُوزِ مِنَ الشَّيْطَانِ - كَثْرَةُ ذِكْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَفِي التِّرْمِذِيِّ مِنْ حَدِيثِ الْحَارِثِ الْأَشْعَرِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ يَعْمَلَ بِهَا وَيَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا، وَإِنَّهُ كَادَ يُطَيَّءَ بِهَا، فَقَالَ عِيسَى: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَكَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ لِتَعْمَلَ بِهَا وَتَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا، فَأَمَّا أَنْ تَأْمُرَهُمْ وَإِمَّا أَنْ أَمُرَهُمْ».

فَقَالَ يَحْيَى: أَخْشَى أَنْ سَبَقْتَنِي بِهَا أَنْ يُخَسَفَ بِي، أَوْ أُعَذَّبَ، فَجَمَعَ النَّاسَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَاذْمًا وَقَعَدُوا عَلَى الشَّرَفِ، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ وَأَمُرَكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ: أَوْلَهُنَّ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَإِنَّ مَثَل مَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ، كَمَثَلِ رَجُلٍ اشْتَرَى عَبْدًا مِنْ خَالِصِ مَالِهِ بِذَهَبٍ (ظ/١١٤٩) أَوْ وَرَقٍ فَقَالَ: هَذِهِ دَارِي، وَهَذَا عَمَلِي وَأَدِّ إِلَيَّ، فَكَانَ يَعْمَلُ وَيُؤَدِّي إِلَيَّ غَيْرَ سَيِّدِهِ، فَأَيُّكُمْ يَرْضَى أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذَلِكَ؟

وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَكَ بِالصَّلَاةِ، فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فَلَا تَلْتَفِتُوا فَإِنَّ اللَّهَ يَنْصُبُ وَجْهَهُ لَوَجْهِ عَبْدِهِ فِي صَلَاتِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ.

وَأَمَرَكَ بِالصِّيَامِ، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ فِي عِصَابَةٍ مَعَهُ صُرَّةٌ فِيهَا مِسْكٌ، فَكُلُّهُمْ يَعْجَبُ أَوْ يُعْجِبُهُ رِيحُهَا، وَإِنَّ رِيحَ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ.

(١) (ع و ق): «أحد».

وَأَمْرَكُمْ بِالصَّدَقَةِ، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَسْرَهُ الْعَدُوَّ فَأَوْثَقُوا
يَدَهُ إِلَى عُنُقِهِ وَقَدَّمُوهُ لِيَضْرِبُوا عُنُقَهُ فَقَالَ: أَنَا أَفْدِيهِ مِنْكُمْ بِالْقَلِيلِ
وَالكَثِيرِ فَفَدَى نَفْسَهُ مِنْهُمْ.

وَأَمْرَكُمْ أَنْ تَذْكُرُوا اللَّهَ، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ الْعَدُوَّ فِي
أَثَرِهِ سِرَاعًا، حَتَّى أَتَى عَلَى حِصْنٍ حَصِينٍ فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ كَذَلِكَ
الْعَبْدُ لَا يُحْرَزُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلَّا بِذِكْرِ اللَّهِ.

قال النبي ﷺ: «وَأَنَا أَمْرُكُمْ بِخَمْسٍ اللَّهُ أَمْرَنِي بِهِنَّ، السَّمْعُ،
وَالطَّاعَةُ، وَالْجِهَادُ، وَالهِجْرَةُ، وَالْجَمَاعَةُ، فَإِنَّ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ قِيدَ
شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ إِلَّا أَنْ يُرَاجِعَ، وَمَنْ ادَّعَى دَعْوَى
الْجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّهُ مِنْ جُنَى جَهَنَّمَ»، فقال رجل: يا رسول الله: وإن صَلَّى
وَصَامَ؟ قال: «وإن صَلَّى وَصَامَ، فَادْعُوا بِدَعْوَى اللَّهِ الَّذِي سَمَّاكُمْ
الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ عِبَادَ اللَّهِ»^(١).

قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب صحيح». وقال البخاري:
الحارث الأشعري له صحبة وله غير هذا الحديث.

فقد أخبر النبي ﷺ في هذا الحديث أن العبد لا يحرز نفسه من
الشیطان إلا بذكر الله، وهذا بعينه هو الذي دلَّت (ق/١٢٠١) عليه سورة

(١) أخرجه أحمد: (٤٠٤/٢٨) رقم (١٧١٧٠)، والترمذي رقم (٢٨٦٣)، وابن خزيمة
رقم (١٨٩٥)، وابن حبان «الإحسان»: (١٢٤/١٤)، والحاكم: (٤٢١/١)،
وغيرهم.

قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح غريب» ثم ذكر كلام البخاري الذي
نقله المصنف. وصححه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم.

ووقع في (ع): «رَبَّقَ» على الجمع، والجُثَا: جمع جُثْوَةٍ بضم الجيم وهو
الشيء المجموع. انظر «النهاية في غريب الحديث»: (٢٣٩/١).

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾^(١)، فإنه وصف الشيطان فيها بأنه الخناس، والخنَّاس^(١) الذي إذا ذكر العبدُ اللهَ انخَسَ وتجمَّعَ وانقبَضَ، وإذا غَفَلَ عن ذكر الله التقم القلب، وألقى إليه الوسوسَ التي هي مبادئُ الشرِّ كُلِّه، فما أحرزَ العبدُ نفسه من الشَّيْطَانِ بِمِثْلِ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

الحرز التاسع: الوضوء والصلاة: وهذا من أعظم ما يتحرَّز به منه، ولاسيما عند ثوران^(٢) قوَّة الغضب والشهوة، فإنها نارٌ تغلي في قلب ابن آدم، كما في الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ أنه قال: «أَلَا وَإِنَّ الْغَضَبَ جَمْرَةٌ فِي قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، أَمَا رَأَيْتُمْ إِلَى حُمْرَةِ عَيْنَيْهِ وَانْتِفَاحِ أَوْدَاجِهِ، فَمَنْ أَحْسَرَ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ فَلْيَلْصِقْ بِالْأَرْضِ»^(٣).

وفي أثر آخر: «إِنَّ الشَّيْطَانَ خُلِقَ مِنْ نَارٍ، وَإِنَّمَا تُطْفَأُ النَّارُ بِالْمَاءِ»^(٤)، فما أطفأ^(٥) العبدُ جمرة الغضب والشهوة بمثل الوضوء والصلاة، فإنها نارٌ والوضوء يُطفئها، والصلاة إذا وقعت بخشوعها والإقبال فيها على الله أذهبت أثر ذلك كُلِّه، وهذا أمرٌ تجربته تُغني عن إقامة الدليل عليه.

الحرز العاشر: إمساكُ فضول النظر والكلام والطعام ومخالطة

(١) (ظ و د): «الخناس».

(٢) (ظ و د): «توارد».

(٣) أخرجه أحمد: (١٨/١٣٢ رقم ١١٥٨٧)، والترمذي رقم (٢١٩١)، وغيرهم قال الترمذي: «حسن» - كما في «تحفة الأشراف»: (٣/٤٦٨) - لكن فيه: علي ابن زيد بن جدعان فيه ضعف.

(٤) أخرجه أحمد: (٢٩/٥٠٥ رقم ١٧٩٨٥)، وأبو داود رقم (٤٧٨٤) وغيرهم من حديث عطية السعدي - رضي الله عنه - .

وفي سنده ضعف.

(٥) (ق و ظ و د): «طغى».

الناس، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ إِنَّمَا يَتَسَلَّطُ عَلَى ابْنِ آدَمَ وَيَنَالُ مِنْهُ غَرَضَهُ مِنْ هَذِهِ الْأَبْوَابِ الْأَرْبَعَةِ، فَإِنَّ فَضُولَ النَّظَرِ يَدْعُوهُ إِلَى الْإِسْتِحْسَانِ، وَوُقُوعِ صُورَةِ الْمَنْظُورِ إِلَيْهِ فِي الْقَلْبِ، وَالِاسْتِغَالِ بِهِ، وَالْفِكْرَةِ فِي الظَّنِّ بِهِ، فَمَبْدَأُ الْفِتْنَةِ مِنْ فَضُولِ النَّظَرِ، كَمَا فِي «الْمَسْنَدِ» عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «النَّظْرَةُ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ، فَمَنْ غَضَّ بَصَرَهُ لِلَّهِ أَوْرَثَهُ اللَّهُ حَلَاوَةً يَجِدُهَا فِي قَلْبِهِ إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ»^(١)، أَوْ كَمَا قَالَ ﷺ: فَالْحَوَادِثُ الْعِظَامُ إِنَّمَا كُلُّهَا مِنْ^(٢) فَضُولِ النَّظَرِ، فَكَمْ نَظْرَةً أَعْقَبَتْ حَسْرَاتٍ لَا حَسْرَةَ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ^(٣):

كُلُّ الْحَوَادِثِ مَبْدَاهَا مِنَ النَّظْرِ وَمُعْظَمُ النَّارِ مِنْ مُسْتَصْغَرِ الشَّرِّ
كَمْ نَظْرَةً فَتَكَتْ فِي قَلْبِ صَاحِبِهَا فَتَكَتِ السَّهَامُ بِلَا قَوْسٍ وَلَا وَتَرٍ
وَقَالَ الْآخِرُ^(٤):

وَكُنْتَ مَتَى أُرْسَلْتَ طَرْفَكَ رَائِدًا لِقَلْبِكَ يَوْمًا أَتَعْبَتُكَ الْمَنَاطِرُ

(١) أخرجه الحاكم: (٣١٣/٤)، والقضاعي في «مسند الشهاب»: (١٩٥/١) من حديث حذيفة - رضي الله عنه - . ولم أجده في «المسند» بهذا اللفظ، ولكن فيه (٢٦٤/٥) من حديث أبي أمامة بإسناد ضعيف ما يوافق شرطه الأخير. وصححه الحاكم، وتعقبه المنذري في «الترغيب»: ٢٣/٣ بأن فيه عبدالرحمن ابن إسحاق الواسطي وإه.

وأخرجه الطبراني في «الكبير»: (١٧٣/١٠) من حديث ابن مسعود - رضي الله عنه - وضعفه الهيثمي في «المجمع»: (٦٦/٨).

(٢) «إنما كلها من» ليست في (ظ ود) ووقع في (ع): «جعلها» بدلاً من «كلها».

(٣) ذكره المؤلف في «روضة المحبين»: (ص/٩٧)، و«الداء والدواء»: (ص/٢٢٤) بلا نسبة مع زيادة بيتين.

وقد وقع في ترتيب الأبيات وقائلها اضطراب في نسخة (ع).

(٤) البيتان بلا نسبة في «حماسة أبي تمام»: (١٥/٢)، وذكرها المؤلف في «روضة المحبين»: (ص/٩٧) على لسان جارية في حكاية للأصمعي.

رَأَيْتَ الَّذِي لَا كُلُّهُ أَنْتَ قَادِرٌ
وقال المتنبي^(١) :

وأنا الذي اجْتَلَبَ الْمَنِيَّةَ طَرْفُهُ
ولي من أبيات^(٢) :

(ظ/١٤٩ب) يارامياً بسهام اللّحظ مجتهداً
(ق/٢٠١ب) وباعث الطّرف يرتاد الشّفاء له
ترجو الشفاء بأحداقٍ بها مرّضٌ
ومُفْنِيًا نَفْسَهُ فِي إِثْرِ أَقْبَحِهِمْ
وواهباً عُمَرَهُ فِي مِثْلِ ذَا سَفْهًا
وبائعاً طيبَ عيشٍ ما له خَطَرٌ
غُبَيْتَ وَاللّهِ غُبَيْتًا فَاخْشَا فُلُو اسـ
ووارداً صَفْوَةَ عَيْشٍ كُلُّهُ كَدْرٌ
وحاطبَ اللَّيْلِ فِي الظُّلْمَاءِ مُتَنَصِّبًا
شَابَ الصُّبَا وَالتَّصَابِي بَعْدُ لَمْ يَشِبِ
وشمسُ عَمْرِكَ قَدْ حَانَ الْغُرُوبُ لَهَا
وفاز بالوصلِ من قَدْ فَازَ وَانْقَشَعَتْ

عليه ولا عن بعضه أنت صابِرٌ
فَمِنْ الْمُطَالِبِ وَالْقَتِيلِ الْقَاتِلُ
أنت القَتِيلُ بما تَرْمِي فلا تُصِيبِ
تَوَقَّهْ إِنَّهُ يَرْتَدُّ بِالْعَطَبِ
فهل سمعتَ بَبْرُءٍ جَاءَ مِنْ عَطَبِ
وصفًا للطخ جمال فيه مستلبِ
لو كنتَ تعرفُ قَدْرَ العَمْرِ لَمْ تَهَبِ^(٣)
بطيف عيش من الآلام منتهبِ
تَرَجَعْتَ ذَا العَقْدِ لَمْ تُغْبِنِ وَلَمْ تَخِبِ
أمامك الورْدُ صَفْوًا ليس بالكذبِ
لكلِّ دَاهِيَةٍ تُدْنِي مِنَ العَطَبِ
وضاعَ وَقْتُكَ بَيْنَ اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ
والفيءِ فِي الأفقِ الشَّرْقِيِّ لَمْ يَغِبِ
عن أفقه ظُلُمَاتُ اللَّيْلِ وَالسُّحُبِ

(١) «ديوانه - مع الشرح المنسوب للعكبري»: (٣/٢٥٠).

(٢) ذكرها المؤلف في «الفوائد»: (ص/١٤٥ - ١٤٦) دون الأول، مع اختلاف في بعضها، وذكر منها بيتين في «الروضة»: (ص/٩٧) معرّوة إليه.

(٣) هذا البيت وما قبله متأخران في (ق) على قوله: «وبائعاً طيب...».

كم ذا التخلف والدنيا قد ارتحلت
ما في الديار وقد سارت ركائب مَنْ
فأفرش الخدَّ ذِيَاكَ التُّرَابَ وقل
ما رَبَّعُ مَيَّةَ محفوفاً يطيف به
ولا الخدودُ وإن أدمينَ من ضَرَج
منازلاً كان يهواها ويألفها
وكلما جلّيت تلك الرُّبوعُ له
أحيا له الشَّوقُ تَذَكَارَ العهودِ بها
هذا وكم منزلٍ في الأرض يألفهُ
ما في الخيام أخو وجدٍ يريحك إن
وأسرٍ في غَمَرَاتِ الليلِ مهتدياً
وعادٍ كلَّ أخي جُبْنٍ ومَعَجَزَةٍ
وخذ لنفسك نوراً تستضيءُ به
فالجسرُ ذو ظلماتٍ ليسَ تقطعهُ
ورسلُ ربِّك قد وافئك في الطَّلَبِ
تهواه للصبِّ من سكنى ولا أربٍ
ما قاله صاحبُ الأشواق في الحِقَبِ
غَيْلانُ أشهى له من ربِّعِ الخربِ
أشهى إلى ناظري من خدِّكَ التُّرَبِ^(١)
أيامَ كان منالُ^(٢) الوصل عن كَتَبِ
يهوي إليها هويِّ الماءِ في صَبَبِ
فلو دعا القلبُ للسُّلوانِ لم يُجبِ
وما له في سواها الدهرُ من رَغَبِ
بشَّتهُ بعضَ شأنِ الحُبِّ فاغتربِ
بنفحةِ الطَّيبِ لا بالثَّارِ والحَطَبِ
وحارب النفسَ لا تُلقِيكَ في الحَرَبِ
يوم اقتسامِ الورى الأنوارَ بالرُّتَبِ
إلا بنورِ يُنجِّي العبدَ في الكُربِ
والمقصود أن فضول النظر أصل البلاء^(٣).

وأما فضول الكلام؛ فإنها تفتحُ للعبدِ أبواباً من الشر، كلها مداخل

(١) هذا والذي قبله لأبي تمام «ديوانه»: (٩٩/١) ضمَّنهما المؤلف.

(٢) (ظ و د): «مناك».

(٣) (ق): «كل بلاء».

للشيطان، فإمساك فضول الكلام (ق/٢٠٢) يسدُّ عنه تلك الأبوابَ كلها، وكم من حربٍ جرَّتْها كلمةٌ واحدة، وقد قال النبي ﷺ لمعاذ: «وَهَلْ يَكُتُبُ النَّاسَ عَلَيَّ مَنَّاخِرِهِمْ فِي النَّارِ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ»^(١). وفي الترمذي أن رجلاً من الأنصار توفي فقال بعض الصحابة: طوبى له، فقال النبي ﷺ: «فَمَا يُدْرِيكَ فَلَعَلَّهُ تَكَلَّمَ بِمَا لَا يَعْنِيهِ، أَوْ بَخَلَ بِمَا لَا يَنْقُصُهُ»^(٢).

وأكثر المعاصي إنما تولدها من فضول الكلام والنظر، وهما أوسعُ مداخل الشيطان، فإن جارحتيهما لا يملأن ولا يسأمان، بخلاف شهوة البطن، فإنه إذا امتلأ لم يبق فيه إرادةٌ للطعام، وأما العين واللسان فلو تُركا لم يفترا من النظر والكلام، فجنائيهما مُتَّسَعَةٌ الأطراف، كثيرةُ السَّعَبِ، عظيمةُ الآفاتِ، وكان السلف يحذرون من فضول النظر، كما يحذرون من فضول الكلام^(٣)، وكانوا يقولون: «ما شيءٌ أحوَجَ إلى طول السَّجْنِ مِنَ اللِّسَانِ»^(٤).

وأما فضول الطعام؛ فهو داعٍ إلى أنواع كثيرة من الشرِّ، فإنه يُحرِّكُ الجوارحَ إلى المعاصي، ويثقلها عن الطاعات، وحسبك بهذين شراً! فكم من معصيةٍ جلبها الشبعُ وفضولُ الطعام، وكم من طاعةٍ حال

(١) أخرجه أحمد: (٢٣١/٥)، والترمذي رقم (٢٦١٦)، وابن ماجه رقم (٣٩٧٣)، والحاكم: (٤١٣/٢) وغيرهم.

قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح»، وصححه الحاكم.

(٢) أخرجه الترمذي رقم (٢٣١٦)، وأبو نعيم في «الحلية»: (٥٦/٥) من حديث أنس - رضي الله عنه -، وقال الترمذي: «غريب» مشيراً إلى ضعفه.

(٣) «كما يحذرون من فضول الكلام» ليست في (ظ ود).

(٤) جاء هذا عن ابن مسعود - رضي الله عنه - أخرجه هناد في «الزهد»: (٥٣٢/٢)، والطبراني في «الكبير»: (١٤٩/٩)، وأبو نعيم في «الحلية»: (١٣٤/١).

دونها، فمن وُقِيَ شَرَّ بَطْنِهِ فَقَدِ وُقِيَ شَرًّا عَظِيمًا، وَالشَّيْطَانُ أَعْظَمُ مَا يَتَحَكَّمُ مِنَ الْإِنْسَانِ إِذَا مَلَأَ بَطْنَهُ مِنَ الطَّعَامِ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي بَعْضِ الْآثَارِ: «ضَيِّقُوا مَجَارِيَ الشَّيْطَانِ بِالصَّوْمِ»، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا مَلَأَ أَدَمِيَّ وَعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ»^(١)، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي التَّمَلُّيِّ مِنَ الطَّعَامِ إِلَّا أَنَّهُ يَدْعُو إِلَى الْغَفْلَةِ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِذَا غَفَلَ الْقَلْبُ عَنِ الذِّكْرِ سَاعَةً وَاحِدَةً جُثِمَ عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ وَوَعَدَهُ وَمَنَاهُ وَشَهَّاهُ، وَهَامَ بِهِ فِي كُلِّ وَادٍ، فَإِنَّ النَّفْسَ إِذَا شَبِعَتْ تَحَرَّكَتْ وَجَالَتْ وَطَافَتْ عَلَى أَبْوَابِ الشَّهَوَاتِ، وَإِذَا جَاعَتْ سَكَنْتْ وَخَشَعَتْ وَذَلَّتْ.

وَأَمَّا فَضُولُ الْمَخَالَطَةِ؛ فَهِيَ الدَّاءُ الْعُضَالُ الْجَالِبُ لِكُلِّ شَرٍّ، وَكَمْ سَلَبَتْ الْمَخَالَطَةُ وَالْمَعَاشِرَةُ مِنَ نِعْمَةٍ، وَكَمْ زَرَعَتْ مِنْ عِدَاوَةٍ، وَكَمْ غَرَسَتْ فِي الْقَلْبِ مِنْ حَزَازَاتٍ، تَزُولُ الْجِبَالُ الرَّاسِيَاتِ وَهِيَ فِي الْقُلُوبِ لَا تَزُولُ، فَفَضُولُ الْمَخَالَطَةِ فِيهِ خَسَارَةٌ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِنَّمَا يَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يَأْخُذَ مِنَ الْمَخَالَطَةِ^(٢) بِمَقْدَارِ الْحَاجَةِ، وَيَجْعَلَ النَّاسَ فِيهَا أَرْبَعَةَ أَقْسَامٍ، مَتَى خَلَطَ أَحَدَ الْأَقْسَامِ بِالْآخَرِ، وَلَمْ يَمَيِّزْ بَيْنَهُمَا دَخَلَ عَلَيْهِ الشَّرُّ:

أَحَدُهَا: مَنْ مَخَالَطَتُهُ كَالغِذَاءِ لَا يُسْتغْنَى (ق/٢٠٢ب) عَنْهُ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ، فَإِذَا أَخَذَ حَاجَتَهُ مِنْهُ تَرَكَ الْخَلَطَةَ^(٣)، ثُمَّ إِذَا احْتَجَّ إِلَيْهِ خَالَطَهُ

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ: (٤٢٤/٢٨) رَقْمَ (١٧١٨٧)، وَالتِّرْمِذِيُّ رَقْمَ (٢٣٨٠)، وَابْنُ مَاجَةَ رَقْمَ (٣٣٤٩)، وَالْحَاكِمُ: (٣٣١/٤)، وَابْنُ حِبَانَ «الإحسان»: (٤١/١٢) وَغَيْرُهُمْ مِنْ حَدِيثِ الْمَقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ، وَصَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ حِبَانَ وَالْحَاكِمُ، وَحَسَّنَهُ الْحَافِظُ فِي «الْفَتْحِ»: (٤٣٨/٩).

(٢) مِنْ قَوْلِهِ: «فِيهِ خَسَارَةٌ...» إِلَى هُنَا سَاقَطَ مِنْ (ظ وَ د).

(٣) (ع): «الْمَخَالَطَةُ».

هكذا على الدوام، وهذا الضربُ أعزُّ من الكبريت الأحمر، وهم العلماء بالله وأمره ومكايد عدوه، وأمراض (ظ/١٥٠) القلوب وأدويتها، الناصحون لله تعالى ولكتابه ولرسوله ولخلقه، فهذا الضربُ في مخالطتهم الربحُ كلُّه.

القسم الثاني: مَنْ مخالطتهُ كالدَّواءِ يُحْتَاجُ إليه عندَ المرضِ، فما دمتَ صحيحًا فلا حاجةَ لك في خلطته، وهم مَنْ لا يُسْتغنى عن مخالطتهم في مصلحة المعاش، وقيام ما أنت محتاج إليه من أنواع المعاملات والمشاركات والاستشارة والعلاج للأدواء ونحوها، فإذا قضيتَ حاجتكَ من مخالطة هذا الضربِ بقيتَ مخالطتهم من:

القسم الثالث: وهم مَنْ مخالطته كالدَّاءِ على اختلاف مراتبه وأنواعه، وقوته وضعفه، فمنهم من مخالطته كالدَّاءِ العُضال، والمرض المزمن، وهو من لا تربحُ عليه في دين ولا دنيا، ومع ذلك فلا بدَّ من أن تخسرَ عليه الدَّين والدنيا أو أحدهما، فهذا إذا تمكَّنت مخالطته واتصلت فهي مرض الموت المَحْوَف.

ومنهم: مَنْ مخالطته كوجع الضرس يشتدُّ ضربانه عليك، فإذا فارقتَ سكن الألم.

ومنهم: مَنْ مخالطته حُمَى الرُّوح وهو الثَّقِيلُ البَغِيضُ العَثَلُ^(١)، الذي لا يُحْسِنُ أن يتكلَّم فيفيدك، ولا يُحْسِنُ أن يُنصِتَ فيستفيد منك، ولا يعرفُ نفسه فيصعَّها في منزلتها، بل إن تكلم فكلامه كالعصِيِّ

(١) (ظ ود وق): «العقل»، والمثبت من (ع) والعَثَلُ والعَثَلُ الكثير من كل شيء، وقد عَثِلَ عَثَلًا، والعَثُولُ من الرجال: الجافي الغليظ، ورجل عَثُولٌ أي: عَمِي قَدَمٌ ثَقِيلٌ مُسْتَرخ. انظر «اللسان»: (١١/٤٢٤).

تنزلُ على قلوب السامعين، مع إعجابه بكلامه، وفرحه به، فهو يُحدِّثُ من فيه كلما تحدَّث، ويظنُّ أنه مسكٌ يطيَّبُ به المجلس، وإن سكت فأثقل من نصف الرِّحَى العظيمة التي لا يُطاق حملها ولا جرُّها على الأرض.

ويُذكر عن الشافعي - رحمه الله - أنه قال: ما جَلَسَ إلى جانبي ثقیلاً إلا وجدتُ الجانبَ الذي هو فيه أنزلَ من الجانبِ الآخر.

ورأيت يوماً عند شيخنا^(١) - قدَّس اللهُ رُوحَه - رجلاً من هذا الضَّرْبِ، والشيخ يحتمله^(٢)، وقد ضعفتِ القوى عن حمله، فالتفت إليَّ وقال: مُجالسة الثقیل حمى الرَّبْع، ثم قال: لكن قد أدمنتُ أرواحنا على الحمى، فصارت لها عادةٌ أو كما قال. وبالجملة؛ فمخالطة كلِّ مخالف حمى للرُّوح فعرضيَّة ولازمة.

ومن نكد الدنيا على العبد أن يُتلى بواحد من هذا الضرب، وليس له بُدٌّ من معاشرته ومخالطته، فليعاشره بالمعروف حتى يجعلَ اللهُ له فرجاً ومخرجاً.

القسم الرابع: من مخالطته الهلُّكُ كُلُّهُ، ومخالطته^(٣) بمنزلة أكل السَّمِّ، فإن اتَّفَقَ لآكله ترياقٌ، وإلا فأحسنَ (ق/١٢٠٣) اللهُ فيه العزاء، وما أكثرَ هذا الضَّرْبَ في الناس - لا كثرهم اللهُ - وهم أهلُ البدع والضلالة، والصَّادُونَ عن سُنَّةِ رسولِ اللهِ ﷺ، الدَّاعُونَ إلى خلافها، الذين يصدُّون عن سبيلِ اللهِ ويبغونها عوجاً، فيجعلون البدعةَ سُنَّةً،

(١) أي: ابن تيمية.

(٢) (ظ و د): «يحملة».

(٣) من قوله: «فليعاشره...» إلى هنا سقط من (ق).

والسُّنَّةَ بَدْعَةً، والمعروف منكرًا، والمنكر معروفًا، إن جرّدت التوحيد بينهم قالوا: تنقّصت جناب الأولياء والصالحين، وإن جرّدت المتابعة لرسول الله ﷺ قالوا: أهدرت الأئمة المتبوعين.

وإن وصفت الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله من غير غلو ولا تقصير قالوا: أنت من المُشَبَّهين، وإن أمرت بما أمر الله به ورسوله من المعروف ونهيت عما نهى الله عنه ورسوله من المنكر، قالوا: أنت من المُفْتَنِينَ. وإن اتبعت السُّنَّةَ وتركت ما خالفها قالوا: أنت من أهل البدع المُضِلِّين. وإن انقطعت إلى الله تعالى وخلّيت بينهم وبين جيفة الدنيا قالوا: أنت من المُلبِّسين، وإن تركت ما أنت عليه، واتبعت أهواءهم فأنت عند الله تعالى من الخاسرين، وعندهم من المنافقين.

فالحزمُ كلُّ الحزم التماسُ مرضاة الله تعالى ورسوله بإغضابهم، وأن لا تشتغل بإعتابهم ولا باستعتابهم، ولا تبال بدمهم ولا بغضهم، فإنه عينُ كمالك، كما قال المتنبي^(١):

وإذا أتتك مذمتي من ناقصٍ فهي الشهادة لي بأني كاملٌ
وقال آخر^(٢):

وقد زادني حُبًا لنفسي أنني بغيضٌ إلى كلِّ امرئٍ غير طائلٍ
فمن كان بوابَ قلبه وحارسه من هذه المداخل الأربعة التي هي

(١) «ديوانه - مع شرحه المنسوب للعكبري»: (٣/٢٦٠). ولم تقع تسمية الشاعر إلا في (ق).

(٢) هو: الطرمّاح الطائي، انظر «حماسة أبي تمام»: (١/١٣٠).

أصلُ بلاءِ العالم، وهي فضول النظر والكلام والطعام والمخالطة، واستعملَ ما ذكرناه من الأسباب التسعة التي تحرّزه من الشيطان؛ فقد أخذ بنصيبه من التوفيق، وسدَّ على (ظ/١٥٠ب) نفسه أبوابَ جهنّم، وفتحَ عليها أبوابَ الرحمة، وانعمَ ظاهره وباطنه، ويوشكُ أن يحمَدَ^(١) عند الممات عاقبةَ هذا الدواء، فعند الممات يحمَدُ القومُ التُّقى و(في الصباح يحمَدُ القومُ السُّرى)، والله الموفقُ لا ربَّ غيرُهُ، ولا إلهَ سواه.

* * *

(١) (ع): «يجد».

